قال قائل

« ليس الوطن مجرّد مكان يؤوينا

وإنما هو حلم نحيا به ويعيش فينا »

Scanned by CamScanner

بحر هادىء... سماء زرقاء

Scanned by CamScanner

تباطأت في ارتشاف قهوتها. تفقدت أصص الأزهار. رشتها بالماء. رفعت عينيها الى الباب المغلق. ذرذرت الحبّ للحمام. تطاير حولها في الفناء وانشغل عن الهديل. تقدمت لتدخل المطبخ ثم عادت. أخذت الفنجان المنسيّ على عنق البئر. رمقت الدرج وباب الغرفة العلوية. تنهدت لتشقّق خشبه القديم. هل اكتشفت هرمه وتآكله الآن فقط ؟ رفعت كتفيها ودخلت المطبخ.

لماذا لم تنفتح الغرفة هذا الصباح ؟

عادت المرأة لتقف في إطار الباب. تأمّلت أشعة الشمس تفترش نصف الفناء. رشقت عينيها بحيرة في باب الغرفة العلوية. رفرفت حمائم بيض ورمادية وحطت على الشرفة... فوق الباب المغلق مباشرة. صاحبة البيت محتارة. لماذا لم يخرج الطالب الشاب كالعادة... لماذا لم ينزل الدّرج وهو يوجّه إليها تحية الصباح قبل ذهابه الى الجامعة ؟

رفعت كتفيها ثانية ودخلت المطبخ.

هكذا بدأ نهار أم أحمد.

على سحائب بيضاء كنديف القطن أنا محمول متنقّل سابح في الفضاء. البرد يدفع ركبتي نحو ذقني ويخضّ أطرافي كلها. وهذا جلدي يتقلص وتكثر تجاعيده. أحيانا أحسّه سينفصل عني كقشر اللوز... يزداد الاهتزاز وأنا بين ارتفاع وانخفاض، فأرتعد وأسمع

Scanned by CamScanner

طقطقة مفاصلي وأسناني. يشتد الصقيع حتى أشعر أنني صرت لوح زجاج، لوحا من الزجاج سيتفتّت عند أوّل صدمة.

ومرة أخرى أجدني على ظهر بعير يموج بين كثبان رملية. الرّمل في صفاء الدقيق. يصيب رأسي وعنقي من لهيب الشمس وحرارة الهجير ما يذيب الصخر...

أتصبّب عرقا. يسيل منه على حاجبيّ وصدري ومن أطراف أصابعي ما يملأ أكوابا. ألهث حتى ينقطع نفسي، وأفتح فمي الجاف طمعا في قطرة ماء من يد رحيمة.

وتارة بتارة أنا فوق الغيم المبلّل البارد، أو في جحيم الرمال القائظة، أتقلب بين هذه وتلك. أهتزّ وأتقرفص وتصطك عظامي، ثم أرتخي وألين، ويسيل مني الماء حتى أيبس وأكاد أجفّ بالكامل. عندها أدفع الغطاء بعيدا وأغيب عن المكان والزمان، فالموت والحياة عندئذ لهما نفس الطعم... يهبانك نفس الشعور.

يجوس بي الدّليل بين معابر الصحراء. أرض يباب وقفر بلا نهاية. كثبان ووهاد تملؤها زواحف وكواسر يقتات بعضها من بعض. يذوب الجسم منصهرا في جحيم النهار، ثم تمسكه كلاليب الصّرد الليلي حتى تكاد تفصل العظام وتفكّكها.

ألا من نار نتدفأ بها أيهاالدليل ؟ مفاصلي تجمّدت ولم تعد لي قدرة على المشي أو الحركة !

يرمقني الدّليل بعين صقر غاضب : «ولم لا تذهب الى حرس الحدود برجليك، مادمت تنوي إشعال النار ليعرفوا مكانك؟ اتبعني صامتا أو ارجع من حيث جئت».

Scanned by CamScanner

ترتفع كتفاي ويغوص رأسي بينهما. يرتعش فكّي الأسفل وأتبع الدليل صامتا، وليس الا الخلاء والأرض المقفرة لا فرق بين جهاتها الأربع. لكنني أعرف أننا نسير جنوبا وشرقا مجانبين مراكز الرقابة.

جلسنا للاستراحة في فترة انفصال الخيط الأبيض عن الخيط الأسود. هي لحظة يحس فيها القلب بالأمان والجسد بالدفء ؛ لحظة سكينة تدعو فيها الطبيعة جميع الكائنات الى استرداد النفس قبل جولة الكفاح القادمة.

في ذلك السكون الشامل سمعت صوت أبي، رأيت شبحه منطبعا في رجرجة الأفق الدّامي: «هل تركتها وخرجت ناجيا بجلدك؟ هل أنت هارب يا ابن ال... وال...؟»

يرتعد جسمي. أغرس مرفقي في الرمل صامتا محدّقا في الفضاء أرى ما لا يراه رفيقي. ارتفع صوت أبي من الأفق يغنّي باللحن الصالحي ولم يسمعه سواي :

ياه.....ياه !
يا مقلّع الزيتونه
لاليك في الصيف ظل
ولا في الشتا مونه
ياه...ياه...
حليلي ع الصالحي ماكثر محونه.

صرخت بأعلى صوتي : « آه يا بابا يا حنّاني ما نيش هارب. مانيش هارب» وبدأت أنتحب. رمقني الدليل بعينه الصقرية ونهرني: «بديت تستخايل ؟ بوك مات ودفنوه. عوّل على روحك وخلّي البكا للبناويت. فزّ نمشو الطريق طويل ».

Scanned by CamScanner

قمت أمشي والشمس تصعد تصعد، والعرق يسيل يسيل، ومع ذلك فكّي يرتعش وعظامي متجمّدة من أثر الصقيع. رفعت ركبتيّ نحو ذقني، ورغم الحرارة سحبت الغطاء الصوفي الى ما فوق رأسي وبقيت أرتجف.

طرقت أم أحمد الباب الموصد : « أستاذ عامر.. يا أستاذ عامر! »

صمت مطبق. لا حركة خلف الباب. تخاصمت بعض العصافير وتصايحت وسط الفناء. التفتت نحوها أم أحمد ثم عادت تطرق الباب : « مالك يا ابني لا تفتح الغرفة للشمس والهواء ؟ ».

عاد الصمت يقطعه هديل الحمائم الواقفة على الشرفة تنتظر ما يحدث : « أستاذ عامر هل الجامعة مقفلة اليوم ؟ هل المكتبة لا تعمل أيضا ؟ مالك لا تجيب ؟ »

وقفت تتنصّت حائرة. توهّمت خروج صوت واهن من الشقوق. أدارت مقبض القفل ودفعت الخشب. أحدث الباب صريرا صاحبه نفس الصوت الواهن يتسلل من تحت الدثار : « أستاذ عامر... هل أستطيع الدخول ؟ »

تأتي غمغمة غير واضحة من الجسم المتكور تحت الغطاء. مدّت رأسها من فرجة الباب وسألت : « سلامتك يا ابني، هل أنت مريض ؟ لماذا لم تنادني ولو بالطرق على الباب ؟»

لم يأتها جواب من الجسد المرتعش، لا يبين منه شيء. وقفت وسط الغرفة مغمورة بمشاعر أموميّة مفاجئة : « مسكين يا عامر يا ابني. هل أنت مريض ؟... هل عندك حمّى ؟ لا تتحرك من مكانك. سآتيك بدواء جلبه لي أحمد من ألمانيا ... اللّه يكرمك ويرضى عليك يا أحمد يا ابني... فرّجت كربي بهاك الدواء... واللّه يفرّج بيه كرب أخيك عامر».

Scanned by CamScanner

عادت تنزل الدرج بأسرع مما صعدت. يد تمسك بالجدار وفم يردّد : « تقبرني يا أحمد يا ابني. الله يسلّمك ويعيدك عن قريب. دواك بلسم لكل العلل... اللّه يشفي بيه هاالغريب اللي موانسني... وعلى اللّه تعود لي من غربتك يا ابني حبيبي ! ».

لم تنقطع تمنيات العجوز ما بين ذهابها وعودتها بالأقراص وكوب الماء. انزاح الغطاء الصوفي ببطء وتناولت الدواء يد ترتعش وجسم مبلّل يختلج من الحمّى.

إيه يا قطرة الماء أنت خير من ألف دواء... أبلّل شفتيّ وأبعث خيطاً بارداً الى حلقي المتشقق... لكنني لا أرتوي.

يأخذ الدليل القِربة من يدي : « تعلّم من الآن الصبر على الجوع والعطش، فما ينتظرك في الغربة صعب عسير.

ــ ها أنا أكتشف... ها أنا أعاني... ها أنا أحمل صليبي وأمشي .

ــ أبوك مات، ولا سند لك من بعده» قال الدليل.

ــ أبي مات نعم، قتله أهل بلده نعم، إخوتي شُرِّدوا نعم، شردهم أهل بلدهم نعم. هل تراني استعنت بك لأفرّ من السعادة نحو الشقاء ؟ هل تراني أتبعك كافرا بأفضال وطني عليّ، جاحدا برّ أهلي وسعادة غمروني بها، ففضّلت الهجرة والاغتراب ؟ هل ركبني الشيطان بدون سبب يا دليل السوء ؟ »

رفع نحوي وجها في سواد الغراب، ورفع عقيرته بالغناء واضعا يده على صدغه :

الدّهرْ مُرّ عجِيبْ ... دَالـــــهْ بْدَالَهْ
مَرَّه يْكُونْ حبيـبْ ... زَاهِيَاتْ أحْوَالهْ

Scanned by CamScanner

وَمَرَّهْ يكُونْ ذِيـــبْ   فَاسْـدَاتْ أفْعَالــــهُ
وإذا تخَلَطْ الدَّقِيق   بالكَـرْف والنُّخَّالَــهْ
يِتْبَاعْ يُومْهَا الحُــرّ   فِي السُّوقْ بالدَّلاَلَــهْ
يِرْحَلْ البُرْنِي يِطِيـرْ   ويـرور النّاس أوْلَى لَـهْ

استمع الممرّض الى سعال عامر وضيق صدره وطمأن العجوز:

ـــ لا تحتاري يا أم أحمد. دواؤك شفى المريض وخفّف عنه الحمّى... قولي الله ينصر ألمانيا.

ـــ الله ينصر ابني أحمد الذي جاء بالدواء. ما أخبار الحمّى؟ هل تعود في رأيك ؟

ـــ لا أظنّ، وإنّما بقيت آثارها... وهي ستزول نهائيا إن بقي جارك في الفراش أياما ولم يتعرض للهواء.

ـــ هل سمعت يا أستاذ عامر؟ ابق مكانك ولا تذهب الى الجامعة حتى تُشفى.

ـــ هل هو طالب ؟ من أي مكان جاء ؟

ـــ يقول أنه من تونس جاء للتعلم في جامعة دمشق.

ـــ لماذا هو هزيل هكذا؟ ألا يأكل جيدا؟ ألا ينام بالقدر الكافي ؟

هزّت أم أحمد كتفيها، ونظرت الى المريض بأمومة.

لم يرفع عامر عينيه... ظل صامتا يتنفّس بصعوبة. جلس الممرّض على كرسيّ بقربه وابتسم للعجوز طالبا فنجان قهوة. لما خرجت تنزل الدرج على مهل، سوّى الممرّض مخدة عامر ورفع جسمه الى الأعلى قليلا. ظل المريض على صمته يدير عينين زائغتين بين الممرض وأشياء الغرفة الصغيرة : كوّة ضيّقة في أعلى الجدار، يمرق منها شعاع باهت ينعكس نوره على خيوط رتيلاء طاب لها المقام هناك،

وفي الركن قوائم خشبية متآكلة ترفع لوحا تغلّفه جرائد قديمة وتتكدس عليه الكتب والأوراق.

في ركن آخر أواني طبخ وأكواب لم تغسل وموقد كحول صغير، رمقتها عينا المريض بيأس وحزن، فلا الجهد أسعفه ولا الوقت كفاه ليداريها عن الأعين.

ومن الجدار المهترئ الى الجدار المهترئ المقابل يمرّ حبل عليه ثياب مختلفة وجوارب ومعطف سميك.

أبصر الجار الممرّض بدوره تلك الأشياء، ولاحظ رطوبة السقف واخضرار الزوايا. خاف أن يزيد وجودها من علة المريض، لكنه تحاشى إثارة الموضوع وسأل :

ـــ لم أسمع منك كلمة واحدة. ألا تشكرني على الزيارة ؟ ألا تحدثني عن دراستك، وظروف حياتك؟ نحن جيران... سكناي بجنب أم أحمد، وأعرف ابنها من قبل أن يكبر ويذهب الى ألمانيا.

عَلامَ تريد أن تطّلع أيها الرجل ؟ لو لم تستنجد بك أم أحمد لظللت تجهل وجودي رغم الجوار. أنا من بلد لا تعرفه. أخرجتني منه ظروف لا يمكن أن تتصوّرها.

خرجت يا سيدي من بلدي لاستغنائه عني. وبدأت يا سيدي أدرس التاريخ في جامعتكم لأنه ليس لديّ ما أصنعه غير ذلك. وسكنت يا سيدي عند أم أحمد لأنها تكتفي بما أعطيها. قالت إنني أؤنسها وأذكّرها بابنها المغترب في ألمانيا... ولكن ها أنت ترى ما فعلت بي رطوبة الغرفة وقسوة شتاء الشام. أما الهزال الذي سألت عنه فمن سوء الغذاء وقلة النوم. ما حيلتي اذا كنت أدرس في النهار وأعمل أغلب الليل في فرن خبّاز ؟

سعل عامر بشدّة فأمسك الممرض بكتفيه وطمأنه بأن حاله السيّء لن يطول :

ـــ سآتيك بشراب من المستشفى يزيل عنك الكحّة وضيق الصدر. ألا تتقاضى مساعدة أو منحة من أية جهة ؟ كم أودّ إرسالك لتصوير الأشعة ؟ لكنك للأسف لا تملك بطاقة علاج.

ـــ أشكرك أيها الجار الكريم. لا أعوّل هنا إلا على نفسي.

ـــ لكن أحوال الطلبة عندنا لا تسير على هذا الحال.

ـــ أنا طالب نعم... لكنني في نفس الوقت لاجئ، وفارّ من وطن لم يظهر حاجته إليّ.

ـــ أعوذ بالله، هل أنت مطلوب للعدالة؟ ما أظنّك إلاّ تمزح.

ـــ في بلدي فتنة وشقاق أكلت نارهما الطيب والخبيث. مات من جرّائها أبي مقتولا، وسجن إخوتي لمجرّد الاشتباه، فلم أنتظر حتى يجيء دوري. دخلت الصحراء فارّا بجلدي، وها أنا أمامك عبوة صفيح فارغة على شاطئ مهجور.

لم يبالغ عامر في وصف حاله وأسباب هجرته. فماشاهده من أحداث زلزل كيانه، وهز إيمانه بذاته وبما انزرع فيها من قيم، سواء بدافع نشأته في عائلة تتنفس حبّ الوطن مع الهواء، أو بدافع دراسته الزيتونية في العاصمة، أو بحكم معاشرته لشباب كالصحائف البيض، ما سجّلت عليها الأيام سوى حبّ الدرس والوفاء للأهل والأوطان.

ثم هبّت ريح الشقاق وتقاتل الإخوة الأعداء، الى أن تغلّب الفصيل الأقوى لما حاز في يده السلطة. وشاء حظ أبيه وعناده أن يكون في الفريق الأضعف، فاغتيل وطورد أبناؤه وانتزعت أموالهم. وها هو أصغر الذرية يصادف بمجرّد إنهاء تعلّمه اليتم والفقر والمطاردة وانسداد الأفق.

أصيبت أمّه بالهلع وهي تراه حائرا لا يدري أين يتوجّه، ولا أين يدفن رأسه حتى ينساه رجال السلطة. وفي يوم باعت مصوغها لتزوّده بما يكفي لسفر طويل، ثم دفعته نحو الحدود الصحراوية مع دليل من معارف زوجها وصحبه الأقدمين.

وجهها الصّارم وهي تعلق على كتفي جراب الزاد والمال لا يُنسى، ولا ينفك يبعث في نفسي الطموح الى التعلّم والتمتع ببعض العيش الهني... دفعتني دفعا إلى أن أعيش حياتي بعيدا عن ماضي أبي وأحقاد بني وطني. تنهّدت فقط وهي تغلق الباب لانقطاع رجائها من كل ما تمنّته لي، وما اشتهت أن تراني عليه في حياتها. أغلقت الباب ورائي وتركتني وجها لوجه مع الصحراء، والطرق الطويلة المترية، وسيارات النقل الصدئة، إلى أن استقر بي المقام في مصر. ومن لم يكن يأمل أن يجد في مصر عبد الناصر كل شيء؟ ألم تكن هي صوت العرب وملاذَهم ومصدر اعتزازهم ؟

طمعتُ أن أجد الصّدور الرحبة ومرابع العلم في انتظاري، وأن أعثر من أول يوم على إيواء وعون اشتهر بهما الأزهر الشريف قديما، لكن المدينة الضخمة لم تأبه بنا. تجاهلتنا، بل أكلت من صحتنا وأموالنا، أنا وزمرة رفاق، ما أكلت، وجعلتنا نطوف بالدوائر، ونتيه بين المعابر دون أمل في التسجيل بالجامعة. جوبهنا باعتذارات مغلّفة أول الأمر، ثم ظهر أنها تسويف ومما طلة لا تؤدّي الى طريق. وفي النهاية عندما أحسسنا بالصّد لمجرّد أننا آتون من بلد مغضوب عليه عربيّا أو مصريّا، اعتصبنا على باب سفارتنا، وكنا سبعة أو ثمانية،

فلم يعترفوا بوجودنا وأبوا التوسّط لنا، إذ لسنا في اعتبارهم سوى مغامرين أفاقين قادمين بغير أوراق رسمية... ولما زاد إلحاحنا هددونا باستدعاء الشرطة.

هتف الممرض محتجّا :

ـــ أعوذ بالله ! ولماذا الشرطة ؟ هل أنتم مجرمون ؟

كان قد وصل منذ قليل ومعه أدوية عديدة وبعض المقويات، وجلس عند رأس المريض، يستمع إلى قصته :

ـــ قدمنا في فترة تكدُّر العلاقات بين مصر وتونس.

ـــ هل اختلف البلدان على سدود أو حدود؟

ـــ بل اختلف زعيماهما الأعظمان عمّن فيهما الأضخم باعا والأطول ذراعا... صراع ديوك.

ـــ بل لعلهما تباريا فيمن أكثر أقوالا وأقل أفعالا.

ابتسم عامر وهو يشعر بدبيب الحياة في عروقه.

ـــ خبنا في مصر خيبة كبرى فسافرنا إلى سوريا. جاءتنا أخبار أن من سبقونا إليها وجدوا الطريق أسهل والاقتبال أحسن.

ـــ ولو... أنتم إخواننا ومن قطر شقيق.

ـــ بل من قطر مشقوق أو متشقق.

ـــ ما بالك تتحدث عن الشقاق... هل عندكم طوائف مثل المشرق؟

ـــ لا طوائف عندنا ولا ملل، وإنما هم إخوة في الدين والوطن، رضعوا نفس اللّبان ومشوا على نفس الدرب. كافحوا معا، وقاوموا نفس العدوّ. وكنا نحسب بعد انسحاب المستعمر أن يزدادوا تلاحما وتعاونا، فإذا بالزعيمين الأشهر والأقوى يتنافران ويتنازعان على

النفوذ والمواقع، وإذا بأحدهما مشرّق وثانيهما مغرّب، وإذا الضغائن وحبّ الذات تطغى على أصوات الحكمة والعقل. لم ينعم الناس طويلا بانتهاء القتال مع الفرنسيس حتى سحبت البنادق من جديد فتقاتل الإخوة، إلى أن فاز الفريق الذي حاز بيده السلطة فاستقوى واقتدر على كل معارضيه. عندها بدأ السجن والتشريد، وأحيانا الشنق في الساحات العامة، الى أن أُسكت كل صوت وأُخمدت كل حركة... والنتيجة أني هنا وأبي تحت الثرى.

ـــ لا تيأس على كل حال، أنت هنا في بلدك. اشغل نفسك بالدراسة فعساك تنسى وتنظر الى المستقبل بأمل جديد.

دخلت عندئذ أم أحمد بحساء ساخن، فأخذه منها الممرّض وقرّبه من عامر. غلب على المريض الحرج وهو يرى العجوز تتعب من أجله، وتطبخ له ما يعينه على استعادة العافية.

سأل الممرض :

ـــ أستاذ عامر... صاحب التّاج يحتاج. لقد مرّت أزمة مرضك هذه على خير، لكن لا بد من الاحتياط... من رأيي أن تسعى لمنحة عن طريق اتحاد الطلبة. إنه حق لكل المنتسبين.

ـــ لكن هذا مشروط.

ـــ أعرف... أوافقك على وجود لوائح ونظام عمل.

ـــ دعك من هذا... مشروط بالانخراط في حزب يوصي بك ويتبنّاك.

ـــ بسيطة... أنا آتيك ببطاقة الانخراط الى هنا. لا تزعج حالك.

ـــ أرجوك بدوري أن لا تشغل بالك بأمري، فليس لي نيّة الانخراط في أي حزب أو تنظيم، يكفيني من دهري فرن عباس الحلبي وغرفة أم أحمد.

هذا عملي في الفرن يطعمني، وتلك غرفة أم أحمد تؤويني ولا زيادة. سأعلّم نفسي الزهد في الطّيبات حتى تمرّ أيام الدراسة بسلام. هل هي عملية بناء جديدة أم ترميم لما انكسر من النفس، واستعادة لما ضاع من آمال؟ الأيام القادمة كفيلة بالجواب. أما رفاقي القادمون معي فقد انتظمت أمورهم وتيسّرت أحوالهم. لم ينتظروا نصيحة الممرّض وانخرطوا، فعرف الريال طريقه إلى جيوبهم وعرفت بطونهم الشبع، بل فيهم من حذق اللعبة حتى نبغ فيها، ولمع اسمه بين الشباب المتحمّس للقضايا الصالحة والطالحة، وتردّد على قاعات التحرير بصحف الحزب المهيمن.

راودني الابتسام، وأنا أتذكر ما برّر به أحدهم مسلكه فاستحييت أن أروي القصة لجاري الممرّض. نظرت ناحيته فوجدته يراقبني وأنا أشفط حساء أم أحمد على مهل.

قال لي ذلك الرفيق : « لا طاقة لامرئ على احتمال البؤس والجوع وضيق الحال إلا فترة من زمن... فترة صغيرة يا أخي ويجب أن لا تطول. لكن مقامنا هنا سيمتد إلى ثلاث سنوات أو أربع، فمن أين لنا الصبر على الزهد والتقتير؟ بل كيف سنقدر على التعلم ونحن جياع وبلا مأوى ؟ سنخدم الحزب الحاكم هنا ونظهر له من الولاء ما نستطيع، ونبتعد عن سفارتنا طوال المدة ما نستطيع، حتى إذا أنهينا الدراسة وقربت الامتحانات، تمسّحنا بأعتاب السفارة ما نستطيع، وسألناها الاطلاع على صحافة بلدنا وأخباره، وابتعدنا عن نوادي الحزب

الحاكم وصحفه، وبذلك نهيّء عودة سالمة سليمة لا غبار عليها ولا شبهات ».

سألت أم أحمد :

ـــ هل أعجبك الحساء؟... بالهنا والشفا على قلبك.

وقال الممرض :

ـــ ألا ترينه يبتسم؟ لا بد أنه أعجبه. أترككم لأنني أداوم الليلة بالمستشفى، وسأزوركم فيما بعد.

شيّعه عامر بكلمات شكر واهنة، وصحبته أم أحمد إلى باب الدار. عند العتبة قال للعجوز :

ـــ جارك برغم الغبن والحاجة دايما هيك (ودفع بذقنه الى الأمام) راعيه واجبري بخاطره.

ـــ يعني توصيني آخذ بالي منه؟

ـــ إي والله أوصيك يا أم أحمد. شاب محترم وما عدت تلاقي مثله كثير بها الأيام.

انغلق باب الخشب المتشقق على صاحب الغرفة، فعادت إليه وحدته، واختلى ثانية بعلّته، يشكو لنفسه اختلاجات السّعال وعسر التنفّس. وضع رأسه على المخدّة محاولا الهروب الى الذكريات والاحلام، عساها تنسيه الحاضر الموجع.

وما ذا فيك أيتها الذكريات ؟ هل بقي منك سوى مسارب يعفرّها التراب ويملؤها الذباب في القرى المتاخمة للواحات، يعبرها ذلك الشريد الهائم على وجهه، بعد أن تركه الدليل عند مشارف طرابلس، وسلّم

إليه مقاليد نفسه يواجه بها مجهول الأيام القادمة ؟ وهل بقي منك غير الفنادق القذرة كزرائب الحيوان، والخوف الدائم من مداهمات البوليس وحرّاس الحدود؟ وهل بقي منك غير الجوع الدائم والشوق اللاهف إلى لقمة سائغة ؟ وهل بقي منك غير الاصطلاء بقيظ الهجير في مخيّمات الانتظار عند الحدود المصرية ؟ وهل بقي منك أيتها الذكريات غير الشحوم العالقة بالثياب، وشاحنات خربة مثل أقفاص الدواجن ؟ وهل بقي منك أيتها الذكريات سوى الأيدي الناهبة لبقشيش أو رشوة، حتى نضب المال والزاد منذ الليالي الأولى في القاهرة؟

وماذا تحملين أيتها الأحلام ؟ هل فيك ما ينسي عذاب الحاضر ويؤسه. أم أنت حبلى بما هو أشدّ وأقسى؟ هل فيك بعض رجاء يشجّع على احتمال الحاضر، أم أن أرضك يباب ضحل لا ينبت شيئا؟ هل عليّ كبح جماح الخيال وطرد عرائس الأمل؟ كيف أقتبلها إذا راودتني مبشرة بغد بعيد لكنه آت لا محالة ؟ هل أذرو تفاؤلي القليل لغربان كوابيسي؟ أم أكتفي بالعيش يوما بيوم، أحمد الأقدار أن وفّرت لي خبزا وماء لمعدتي، وهواء لرئتي ؟

وما صبابة مشتاق على أمل من اللقاء، كمشتاق بلا أمل

هل أعود إليك يا أمّي؟ هل أزور قبرك يوما يا أبي؟

نصحني الدليل قبل أن نفترق :

ـــ لا تكشف هويتك للغرباء ولا تقرّب وجهك منهم، فما أسهل أن ينكشف السّرّ في هذه الأماكن العارية ويذاع للعسس من حيث لا تدرك، فتعاد مصفّدا الى بلدك،

متهما بالتسلّل أو الهرب من القضاء، أو بتهريب ممنوعات، أو ما شئت من تهم لا تعرف من أين أتتك، ولا كيف تصدّت لك. إني رأيت في مخفر الحدود عشرات من أمثالك، تسلّمهم العساكر من هنا الى عساكر الضفة الأخرى، كما تسلّم الخرفان من بائع لمشتر.

في القاهرة اشتدّ بعامر العسر، ونضب ماله وزاده حتى كاد يتسوّل، لولا أن تعرّف على طالب تونسي سبقه الى تلك المدينة الكبيرة فآواه، ووجد له عملا بمطبعة صغيرة. بقي أمر التسجيل وهذا ما لم يجد له حلاّ، رغم الوقت والجهد وتضامنه مع من كانوا في مثل حاله من مواطنيه.

قال له مضيّفه ذات يوم:

ـــ أنت تضيع وقتك دون فائدة. فلا باب سيفتح لك. لو كنت من الجزائر أو من أيّ بلد عربي آخر لتدخّلت هيئة ما لمساعدتك على التسجيل، وربما تبنّتك وساعدتك بالمال والمأوى، ولكنك قادم من بلد تعتبره مصر مارقا وخارجا عن الصفّ العربي. منذ عام أو عامين لم تكن الحال هكذا... أتذكّر أننا اقتبلنا حينها بالأحضان، واعتبرنا الجميع مناضلين قادمين من بلد مناضل. أما اليوم، بعد هذه الفتنة القائمة والسباب المتبادل، فلا أحد يعرف من أيّ شقّ أنت ، بل إن بلدك كله متهم اليوم في وطنيته وانتسابه العربي، يتبارى مذيعو صوت العرب في اتهامه بقبول الاستقلال المنقوص، وخيانة الثورة الجزائرية... بل وخيانة العرب جميعا.

ـــ مهما كانت خطورة هذه الوقائع فإن الأيام ستحكم لها أو عليها... التاريخ هو الحكَم. أما قيام الفتنة، واقتتال الإخوة بحقد أعمى، ثم استبداد فئة واحدة دون غيرها بالسلطة، وقطعها ألسنة من

عارضها أو ناقش اختياراتها، فهذا ما كرهته في بلدي وهذا ما أخرجني منه.

ـــ وحتى يثبت من أي طائفة أنت لن يفتح لك أحد الأبواب، ولن تجد نصيرا.

ـــ ألا تتدخّل السفارة للمساعدة ولو بتوصية صغيرة؟

ـــ كان صوتها مسموعا وطلبها مستجابا، ولكن الحال تغيّر بعد هذه العداوة المعلنة من زعيم بلدكم. ألم يطلق في وجه عبد الناصر شعار «بلاش عروبة!»؟ آه لو سمعت أو رأيت كم تأذّى منها الرجل؟ لقد اعتبرها شتيمة كبرى، وسبابا علنيّا، وتبعه في ذلك الاخوان المسلمون، واليساريون، والقوميّون والبعثيون ومناضلو فلسطين وكلّ من هبّ ودبّ.

ثم كيف تنتظرون المساعدة من السفارة وقد خرقتم الحدود بدون رخصة، ولم تقدموا لها معلومات صحيحة عن هوياتكم وانتماءاتكم، وأسباب وجودكم في أرض غير أرضكم ؟

ـــ هل نحن أطفال كتّاب لا نخرج إلا بالإذن ؟ ثم إننا لم نطلب صدقة، بل وساطة لدى الجامعة حتى تقبل تسجيلنا... أي نوعا من الضمان الأدبي لا أكثر.

ـــ هذا أعسر ما يمكن طلبه من السفارة... أن تكون مسؤولة عنكم حتى وإن عبثتم بقوانين البلد.

ـــ وما أدراها أننا جئنا لنعبث بالقوانين ؟ نحن هنا ثمانية شبان لا نبتغي سوى طلب العلم.

ـــ لا شيء لديكم يثبت ذلك. القاهرة تعجّ بالمعارضين من كل لون، فيها من المتآمرين والفوضويين، بل ومن القتلة والمجرمين والجواسيس ما لا يحصى، فمن قال أنكم لستم منهم ؟ وحتى إن لم تكونوا كذلك كلكم فبعضكم.

هذا ما حصلنا عليه. فنحن الذين شوينا جلودنا في الصحراء ووهبنا مالنا القليل رشوة لحرّاس الحدود، وقضينا الليالي في العراء ننتظر رخصة اجتياز الخطوط الوهميّة بين أطراف هذا الوطن الكبير، لا حظّ لنا في التعلم... علينا التشرّد والضّياع في هذه المدينة الضخمة، أو العودة من حيث جئنا : قطار الاسكندرية، فمرسى مطروح، فليالي عراء وصقيع أخرى في السلوم، ثم دخول الصحراء اللّيبية واجتياز مسارب الغبار والذباب، وأخيرا يا حراس الحدود ها قد عدنا، جاهزين للاستجواب والمساءلة، وهاكم أيدينا للأصفاد، وأرواحنا للبيع أو الايجار!!. هاكم نحن السلعة البائرة، الشباب الضالّ المضلّل، جاهزين للمقاضاة أو المراضاة، فافعلوا بنا ما شئتم مادام الجميع قد رفضونا !!.

هل هذا آخر ما وصل إليه تفكيرك يا عامر؟ هل تنهزم عند أول مواجهة ؟ أتعرف ما ينتظرك إذا عدت من حيث جئت ؟

اطرح عنك هذه الأفكار... انظر خلفك بغضب وتقدّم !!

مهما كانت ظروف الحياة في دمشق فهي أيسر، يجري فيها اقتبال الطلبة العرب بصورة طبيعية... ربما استمالة للشباب وتأليفا لقلوبهم. هذا جائز، لكن جرى التسجيل في الجامعة دون عقبات تذكر. بقيت مسالك الرزق مع ذلك بيد الغيب... لا أحد يعرف من أين سيأكل. لكن الشبان الأكثر انتهازية عرفوا المخابئ والمسالك السرّية، فداوموا الحضور في اتحاد الطلبة واستخرجوا بطاقات

بعثية فتحت لهم أبوابا كثيرة، ليس أقلها قاعات تحرير الصحف الحكومية، وأبواب المطاعم والخدمات الجامعيّة، هذا غير المنح تصرف لهم كل شهر عدّا ونقدا.

لكن عامر نأى بنفسه عن المجموعة القادمة معه، وانزوى بفقره وحزنه في غرفة أم أحمد، لا يخرج عن ضلوع مثلث الجامعة، الفرن، الغرفة، ودفع الأيام أمامه دفعا شجاعا.

وعادة ما يأتي أحمد لزيارة أمه في أواخر الربيع، فيأنس له عامر ويجالسه في البيت وخارجه إلى أن تمكنت بينهما ألفة وصداقة، وصارح أحدهما الآخر بذات صدره. وقد علم أحمد من أمه بمعاناة الشاب وقسوته على نفسه للتوفيق بين الدراسة والعمل الليلي الشاق فسأله :

ـــ عملك في الفرن يا عامر يضيف، إلى صعوبة التوفيق بينه وبين الدراسة، خطر الإصابة بالبرد عندما تخرج من حرارة المكان الى صقيع ليالي دمشق. قالت أمي أنك عانيت من التهابات صدرية خطيرة وسعال شديد ألزمك الفراش أياما، وفوّت عليك الدروس.

ـــ مهما بذلت من جهد فما استطعت تعويض ما فاتني أثناء مرضي، خاصة وقد تضاءلت قدرتي البدنية من شدة الوهن وما خلفه المرض. لكن ما الحيلة؟ هذا كل ما قدرت عليه.

ـــ ها قد اقتربت الامتحانات وبعدها ستعود إلى بلدك لترتاح وتستعيد ما ضاع منك. هذا كل ما تحتاجه في رأيي.

ـــ عن أي عودة تتحدث يا أحمد؟ سأبقى هنا خلال الصيف، وأستمرّ في العمل عند عباس الحلبي حتى تنقضي العطلة.

ـــ وتبقى عند عباس في جحيم الصيف ؟

ـــ وبماذا تريدني أن أعيش ؟

سكت أحمد محدّقا في مخاطبه، وكأنه يلاحظ لأول مرّة شحوبه وانخطاف لونه. جاءت العجوز بصينية القهوة ثم عادت الى مطبخها بعد نظرة حانية على ابنها.

ـــ تعال معي إلى ألمانيا !

ـــ إلى ماذا؟ هل تهزأ أم أنت جادّ ؟

ـــ أنا جادّ كل الجدّ. ما دمت لا تدرس فستقتلك السآمة وصيف دمشق.

ـــ تعني أنني بدلا عن ذلك أذهب للاصطياف في ألمانيا والتّبرّد في أنهارها ؟

ـــ لا... لن ترى ألمانيا ولا أنهارها، وإنما تقضي كل وقتك بين العمل في المصنع أو الاستراحة في الغرفة، ولن ترى من ألمانيا إلا ما يسمح به وقت عبورك بين الاثنين.

ـــ عن أيّ مصنع تتحدّث... هل من السهل الحصول على عمل هناك ؟

ـــ مصنع تعليب الثمار حيث أعمل. إنه يستقطب خلال الصيف طوائف الشباب يأتون من أوروبا وتركيا للعمل الموسمي، فلماذا لا تجرّب حظك وتوفّر لنفسك في شهرين اثنين ضعف ما يمنحك عباس الحلبي عاما كاملا ؟ ثم إنك تغيّر المكان والهواء وتجاورني بعض الوقت في غربتي.

ـــ هل ترى الأمر ممكنا ولا مال عندي لنفقات السفر ؟

ـــ لا يحتاج السفر إلى نفقات كثيرة، فسيكون بالقطار، وسأعيرك ثمن التذكرة الى حين يتوفر عندك ما يكفي. أما صاحب المعمل فأنا كفيل به، وقد قدّمت له سابقا من هم في مثل وضعك فقبلهم دون اعتراض، لأن عملهم مؤقت وغير مكلّف. وستكون سكناك معي لنعفي أم أحمد فترة قصيرة من تنظيف الغرفة، والعناية بك عندما تمرض.

ونادت أم أحمد من داخل المطبخ :

ـــ هل تتحدثان عنّي؟ هل تريدان شيئا للأكل ؟

ضحك الشابان، ورفرفت الحمائم طائرة إلى الشرفات لترقب المشهد من هناك.

كتب عامر لابن عمه خطابا قبل عودته بقليل ذكر فيه تفاصيل عامه الأسود، وكيف قضى بعضه تائها في الصحراء، وبعضه متشرّدا في القاهرة، وجزءا منه باحثا عن الطعام والمأوى في شتاء دمشق عندما ابيضّ جبل قاسيون، وحكى له عن مرضه المتسبّب في رسوبه، وعن رحلاته الصيفية إلى ألمانيا، وهي في نهاية الأمر سبب نجاحه في الدراسة عبر السنوات الموالية.

أعطتني الرحلة الأولى دفعا معنويا لا آدري ما كنت صانعا بنفسي لولاه. بعد المرض وخيبة الامتحان كنت بحاجة قصوى إلى هواء جديد، ومشاغل جديدة أنسى بها انكساري ووهن بدني. وقد كسبت في السّفرات الموالية أصدقاء جددا من جنسيات مختلفة، وزرت عند العودة شرق أوروبا وأجزاء من تركيا، فرأيت ما وهب الخالق لغيرنا من ماء وخضرة وكمال صورة، وفي كل مرة ينزاح جزء من ضيق صدري، وينفتح أفق جديد في عقلي، بعد تكلّس ذهنيّ، وانطواء على مشاكل وطني وخلافات الوطن العربي والدراما الفلسطينية. وبالتدريج أدركت مدى وسع الكون ورحابة النفس الانسانية في قبولها لتنوّع المصائر، ورضاها بالتقلّب بين البراكين والزلازل والحروب دون وهن أو استسلام أو تفكير في الانتحار الجماعي... هنا يكمن شرف الإنسان.

الكون فسيح يا ابن عمي، متنوّع، متقلّب وهذا سرّ بقائه وبهائه. فيه أقوام كثار بكل الأطياف، ذوو عادات ومعتقدات لا تخطر لك على بال، ولا أحد فيمن رأيت يدّعي كما نفعل نحن في الشرق أنه صُرّة الكون ومركز ثقل العالم.

ماذا فعلنا للانخراط في مسيرة العصر الحديث؟ لا شيء. كل مشاريع الأدلجة والتثوير والتنوير والتغيير أخفقت.

لماذا يركبنا هذا الشعور الدائم باننا لا نأخذ من مائدة العالم ما يكفي، ونحن لم نسهم بوضع شيء كثير فوقها؟

لماذا شعورنا المستمر بالاضطهاد وأننا ضحية مؤامرة كونية؟... يتهيّأ لي أننا نصيح كثيرا ولا نتحرك إلا قليلا.

رأيت شعوبا تنهض من هزائم مدمّرة فانعكفت تلعق جراحها بصمت، وتنبش الأرض بأظافر مكسورة لتستنبت حبّة، أو تضع أسّ بنيان جديد. ورأيت أوطانا مأسورة حبيسة مكمّمة الأفواه. لكنها تتململ وتقضم قيودها بالأسنان، وفي نفس الوقت تعمل بجدّ وتحيا ضاحكة راقصة واثقة بأن العالم لا بدّ أن يتغير.

دول اشتراكية تعيش بأمل، ودول رأسمالية بجوارها تعيش بوثوق، وأتراك يطوّرون أمور دينهم ودنياهم غير موتورين، ولا نادمين على زوال الأمبراطورية أو خروج الخلافة من أيديهم.

هل مازلت تذكرجدّتنا وتصوّرها أن حدود العالم هي مشارف قريتنا، وأن ليس في غير بلدنا قوم تُفهم أقوالهم

وتصلح معاشرتهم؟ لقد عاشت وماتت دون أن ترى فرنسيا واحدا، ومع ذلك كانوا يتحكمون في الهواء الذي تتنفسه والقوت الذي تأكله.

هكذا نحن في مشرقنا ومغربنا... قوم من النّعام الخائف على ريشه، لكنه لا يفعل شيئا للدفاع عنه، والدليل على ذلك أن ريشه المخطوف المنتوف في كل حين يملأ مخدّات العالم.

نقل خطاه ببطء، مشى على الرصيف كالمتنزه، جالت عيناه بين واجهات الدور والمتاجر والعمارات كالباحث عن عنوان بذاته. هو فعلا يقصد محلا بعينه، وفي ذهنه صورة امرأة جميلة شعرها كستنائي طويل وعيناها واسعتان نام فيهما ليل شديد السواد. رأى تلك المحاسن أثناء حفل أقامته إحدى السفارات، فانجذب إليها وكال المديح بلا حساب لصاحبتها حتى استمالها. قبلت دعوته للغداء في اليوم الموالي، ثم تعارفا أكثر فقبلت دعواته المتكررة، واستضافته لها في بيته، كأيّة صديقة قديمة.

أيّة صديقة قديمة ؟ وماذا أعرف عنها حتى أصفها بالصّديقة؟ وأين الأصدقاء، في هذا الزمن ؟ هل أجرؤ على وصف امرأة زارت بيتي مرة أو مرتين بأنها صديقة ؟ فبم أصف إذن ألمانية عاشرتني شهرا كاملا وقتلتني عشقا حتى كدت أقطع صلتي بالعالم من أجلها ؟ وبم أصف بلغارية أرادت أن تتزوّجني قسرا وغصبا، وألبّت أهلها فاحتجزوني عندهم لاأخرج من بيت الزوجية الموهوم أسبوعا؟ وماذا أسمّي التركية التي أمسكت بكفها

وغرقت في خضرة اللوز بعينيها فلم أشعر كيف شق بنا القطار كل بلاد الأناضول ؟

ماهي إلا علاقة أخرى في الطابور الطويل، فلأرتّب أمري معها على هذا الأساس، إذ لن يطول مقامي هنا وسأعود إلى ركوب الريح، الى اغترابي الأليف، فهو ملجئي وسلام روحي. أما الشعر الكستنائي الطويل، أما العينان الواسعتان فمرفأ مؤقت، ليس بعده سوى الإبحار بعيدا، بعيدا.

ماذا أعرف عنها ؟ لا شيء تقريبا، سوى بعض التفاصيل البسيطة : رائحة عطرها النفاذة، هيامها بارتياد المطاعم الفاخرة وشوقها الدائم الى الهدايا الثمينة، وأنها تعمل مضيّفة في الملتقيات والمؤتمرات، أو دليلا سياحيا عند الاقتضاء. إنها تبيع المؤانسة... وهي بضاعة مطلوبة يحتاجها أي بلد انفتح للزوّار والضيوف، ونادى سيّاح العالم بإلحاح وتشويق.

هذا كل ما عرفته عنها عندما أعطتني عنوان وكالة عقارية، قالت أنها تتعامل معها، وأنه يمكنني السؤال عنها هناك. وها أنا أبحث عن عنوان تلك الوكالة.

دفع الباب ليرى الى جانب السكرتيرة امرأة شقراء فارعة الطول، تلبس «بلوزة ديكولتي» عريضة ثريّة المحتوى، في أناقتها ونظرتها النفّاذة جرأة وتحدّ. فحصت الزائر باهتمام، ثم انفتحت عيناها وتألقتا ببريق غريب، لعله الذهول أو الاستغراب قد رسما على وجه المرأة الجميلة علامة استفهام كبيرة، حاولت كتمانها أولا فلم تفه بكلمة، وتردّدت لحظة قبل أن تقول بصوت خافت لا يكاد يسمع :

ـــ المجنون ؟ مجنون ليلى ؟ يا حسرة... يا اااه !

وبانتقال مفاجئ انطلقت منها ضحكة صاخبة صريحة ملأت المكان بهجة وكسرت جمود الموقف. لم يخف الزائر ارتباكه، وبدا لأول وهلة كالغائب عن المكان، كأنما يستذكر في الخيال ملامح وأطيافا ومعالم تاهت في النسيان، أو لعله ندم على مجيئه الى هنا، ولربما تساءل : أيكون هذا هو مكتب الوكالة العقارية فعلا ؟.

عاد من تهويمته بسرعة، وأخذ يمسح شاربيه متجاهلا العبارة التي مسّت أعصابه بعنف. وسأل بتكلّف ظاهر :

ـــ صباح الخير... أهذا هو المكتب العقاري، لم أخطئ في العنوان إذن ؟

رنّت الضحكة من جديد تملأ المكتب، وتحركت صاحبته في خطى أنيقة نحو الضيف لتسلّم عليه.

ـــ لا.. لم تخطئ يا سيدي، هل تبحث عن شقة أو فيلاّ، أم المطلوب مكتب عمل؟ لا ...لا. أنا مخطئة. أكبر الظنّ أنك صرت ثريّا وتريد توظيف أموالك في شراء عقارات كبيرة وأرض واسعة مضمونة الربح.

قالت ذلك والضحك يغالبها كأنما لتزيد ارتباك زائرها، أو لتدخل شيئا من الألفة على لقائهما البارد. لم يضحك عامر ولم يجب على الأسئلة، وإنما ظلّ يفكر :

هل أعلمها بسبب زيارتي أم لا ؟ ألا يجرّني ذلك الى كشف ما لا أريد أن تعرفه هذه المرأة ؟ ولكن السؤال الأهمّ : من هذه المرأة أصلا ؟ هل هي هي ؟ أم إنها ليست هي ؟ هل هذا هو شعرها وهذا نحرها وهذا صدرها، وهذا ما تمنّيت رؤية ملمح صغير منه برفّة هواء، أو حركة طائشة تزيح اللحفة المصري وتسمح بنظرة طائرة

مسترقة ؟ يا... ! كم كانت واسعة العينين ؟ أين الخصلات النافرة من البرقع تفضح سواد شعرها الفاحم ؟ ما الذي غيّر الصورة ؟ ما الذي جعل الفتاة الحييّة التي لا ترفع عينيها عن الأرض أو تتلفّت يمنة ويسرة ترشق ناظريها في وجهي بجرأة وحدّة ؟ لم أسمع صوتها سابقا وها أنا أسمعه عاليا حادّ النبرة. هل هذه الشقراء المتعطّرة المتبرّجة المتغنّجة هي بديعة ؟ هل هي حقّا حبيبتي التي انتظرت عودتها كل يوم من مركز الراهبات ؟ هل هي التي كانت تدقّ الأرض بكعبيها دونما التفات لناحيتي أو رأفة بقلب العاشق المنتظر ؟

وتنعتني اليوم بمجنون ليلى... لعل في قولها بعض الحق... لا بد أنني قد جننت في إحدى فترات حياتي، لكنني عاجز اليوم عن تفسير أمور أو تصرفات تختزنها الذاكرة.

أتذكّر الآن أنني جلست يوما أترشّف كأس شاي، بادي الهدوء، رغم عصبية نظراتي، إلى الجهة اليمنى حيث مركز تدريب البنات. من حولي درّاجات عديدة بعضها معلّق والبعض مطروح أرضا للإصلاح، والشبان الغادون الرائحون على الدكان في نقاش مع صاحبه لا ينتهي ولا يفتر. وأنا أتعمّد الجلوس عند قريبي صاحب الدكان مدّعيا أنّ لشايه لذّة بلا مثيل. ويعرف قريبي الحقيقة ولكنه يمازحني ويجاريني ويتحاشى إحراجي، ذلك أننا صديقان حسنت بيننا العشرة، إضافة إلى القرابة والجوار.

كنت منصرفا عما يدور حولي، مستغرقا في أفكاري الخاصّة، أحترق شوقا الى رؤية فاتنتي، فأنا يقظان لكن

كالمبحر في حلم لذيذ. وفجأة بان قوامها قريبا جداً مني، ورنّ صوت كعبها يدقّ الأرض، وإذا بي أقفز من مكاني، وأمد يدي بكأس الشاي إلى أقصى ما يسمح به ذراعي، حتى كاد يلامس وجه الفتاة، ولكنها حادت عن اليد بسرعة، وانتقلت الى الناصية الأخرى، وواصلت طريقها دون أن ترى ما حدث خلفها.

والذي حصل في طرفة عين أنّ يدا امتدّت من وراء الفتاة فأطارت الكأس ورطمته بالجدار المقابل، فتكسّر وتناثر في الهواء شايه الأحمر اللذيذ.

دخل المكتب رجل مربّع الشكل غريب الهيئة، يمشي على رجلين قصيرتين متفاحجا كالغوريلا، استطال شعره بلا نظام وتهدّل منفوشا على كتفيه، وأهمل لحيته حتى غمرت الوجه بالكامل. هل هذا أحد متصوّفة الهنود ؟ لكن ما شأن مثله بمكتب عقاري ؟

حينما حيّاه عامر ونظر في وجهه تذكّر العينين الشديدتي السواد... إنه يعرفهما جيدا، ويوقظان في نفسه ذكرى مؤلمة خلّفها ذلك الشّجار القديم... نعم هو من ردعه بصورة قاطعة عن انتظار السمراء العابرة كل يوم أمام العجلاتي، تعتصر قلبه وتمضي غير مبالية. كم تألم من حرج ما تسبّب فيه لقريبه صاحب الدّكان، حتى أنه ندم على تردّده عليه وجلوسه عنده لشرب الشاي. انقطع فيما بعد عن زيارته أسابيع وأشهرا، حتى ظنه الرجل مريضا، فزاره وهوّن عليه الأمر، رادّا على اعتذاراته بكلمات لطيفة أعادت العلاقة الى صفائها الأول.

أتذكّر منظر هذا الغوريلا وهو مازال شابا، أتذكّر

قبضة يده تندفع لتلطم وجهي لكنّها تصيب كأس الشاي. ثم وهو يمسك بخناقي ويلقيني أرضا. لولا تدخّل منصور يومها لأحدث بي ذلك القرد العنيف عاهة دائمة. التفّ به هو والشبان الموجودون آنذاك وأخذوه بعيدا لائمين، مبرّئين ساحتي، مدّعين جهلي أنها أخته وإلا ما كنت تعرّضت لها أصلا. وطال بهم الحوار الى أن هدأ الوحش وركب دراجته ليلحق بأخته، ولعله سيكمل الحوار معها في البيت لمعرفة ماإذا كنت معتادا على مضايقتها، أم إنها المرّة الأولى.

كانت ورطة كبيرة لم أعرف كيف أخرج منها. ابتعدت عن مكان المعركة وقد تصبّبت عرقا واحتقن وجهي. انتظرت قليلا حتى انصرف الشبان لأفسّر لمنصور سوء فهم ذلك الوغْد، وأن لا علاقة لي به ولا بأخته. ولكن الخبيث رمقني بنظرة هازئة وهو يصفّر لحن أغنية «لاموني اللّي غاروا منّي». أدركت عندئذ أن لا فائدة من إطالة الشّرح، فخفضت رأسي وخرجت دون أن ألقي التحية كما هي العادة.

قالت صاحبة المحلّ لأخيها بحماس :

ـــ انظر يا عزّوز من يزورنا اليوم ؟ ألم تتعرّف عليه ؟ حاول مرّة ثانية. ألم نسكن معا حيّ الزاوية البكرية ؟... تلاقينا في الحيّ مرّات ومرّات ولطالما تبادلنا التحية. ألا تتذكر أنكما تسابقتما بدرّاجات منصور ولو مرّة واحدة ؟

ـــ لا أتذكّر... ربّما. على كل حال تشرفنا.

قال ذلك وهو يفحص الضيف بنظرة لا مبالية، سرعان ما نقلها إلى رفاقه الأربعة، وكانوا من السيّاح العرب. نقلت الأخت اهتمامها

إلى الضيوف أيضا، وأكثرت من عبارات الترحيب والسلام مع ابتسامات عريضة. وبعد أن أُجلسوا في الصالون وطُلب لهم الشاي، انغمس الأخ وأخته في حوار هامس يتعلق فيما يظهر بإيجاد سكن للجماعة، مع ما يتبعه من مرافق توفّر لهم الراحة والتسلية لفترة قصيرة يقضونها في البلد.

سألت صاحبة الوكالة أخاها عن الجماعة إن كانوا من رجال الأعمال، وهل يحتاجون الى سيّارة بسائق ؟

ـــ قالوا إنهم في حاجة إلى مترجمة.

ـــ وماذا ستترجم لهم ؟ ألا يفهمون العربية ؟

ـــ يقولون إن اللهجة صعبة ولا بد لهم من...

ـــ ليس لدي مختصّة في اللهجات المحلية.

ـــ هات أي فتاة، على شرط أن تكون جميلة.

ـــ ما معنى أي فتاة ؟

وهنا اقترب الغوريلا من أذن أخته وعاد الاثنان إلى حديثهما الهامس. ابتعد عامر عن مكانهما، محاولا إخفاء امتعاضه بالتأمل في حركة الشارع من خلال النافذة.

في نهاية المقابلة تكررت عبارات الترحيب، وأبرزت صاحبة الوكالة، بابتسامة عريضة، أسنانا بيضاء قوية مستعدّة للقضم.

عندما كان الجماعة في مفاوضاتهم تركهم عامر وخرج الى الشارع دون أن يشعروا، محمّلا بصور كثيرة سحبتها الذاكرة من منطقة الظل، ووضعتها إلى جانب صور اليوم، مركّبة من الجميع شريطا غريبا يعسر تفسير أحداثه : الحبيبة القديمة تلميذة لراهبات، تأتي من آخر النهج ملتحفة ببرقعها، «لحفة مصري» من لساتان الأسود تنزل الى الخصر، لا يبدو منها غير العينين الواسعتين طلاّن من لثام خفيف في شكل استدارة الوجه، أما باقي الحجاب

فينزل من الرأس ليأخذ شكلا أفقيا ناحية الكتفين المتصلّبتين في حركة استعلاء، كأنما صاحبته تردع بصلفها نظراتنا الجوعى. ألم نكن نقف كلما مرت أمام منصور نحيّي مرورها صامتين، كأننا في لحظة الاكتشاف الأولى ؟

وهذا أخوها عزّوز يبرز من زوايا الذاكرة شابا وسيما يضجّ حيوية واعتزازا بأناقته وجسمه الرياضي. هذا هو من اشتدت غيرته على أخته حين كلمها أحد الشبان فارتمى عليه ليدقّ عظامه. هذا الذي طالما تجسّس على أخته وتابع حركاتها على دراجته، وهي تتردد بين البيت ومركز الراهبات، يعمل معها بالسمسرة. هذا الوصيّ على شرف العائلة يتراوح نشاطه اليوم بين البطالة والقوادة.

أتذكّر الآن عدوانيته... لولا انتباه الشبان واعتراضهم لدرّاجته لما قزقزت عجلاته ونبّهتني، ولما ارتطم كأس الشاي بالجدار. بل أنا من كان سيقع منكسر الضلوع أو الرأس بفعل الاصطدام وبسقوط الدراجة وصاحبها فوقي. خبيث ودنيء من أصله، رغم تظاهره بالغيرة على أخته وحراسة أخلاقها. لا أشك لحظة أنه قضى يوم الحادثة ساعات يستنطقها ويستدرجها ليعرف إذا ما ربطتها بي علاقة ما، وإذا كانت قدشجعتني يوما بلفتة أو ابتسامة. وربّما هددها بإعلام أبيها إن لم تقبل المساومة وتعلمه بالحقيقة. ولأنها تعرف ما سينتج عن ذلك من تعنيف وتهديد، قد ينتهيان بإرسالها الى بيت جدّها في الريف، أو بفصلها من مركز الراهبات، وهو متنفسها الوحيد، قد تكون اعترفت بأنها شجعتني وبادلتني نظرات الاعجاب لا غير، ثم أقسمت أن تكفّ عن ذلك من يومها، ولا تعود الى مثله أبدا.

هذا الوصيّ السابق على أخلاق أخته يقدّم لها اليوم الضيوف من طالبي الشقة المفروشة والرفقة المؤنسة، ومستلزمات السكرتارية الظاهرة والمبطّنة.

وجد عامر نفسه في اليوم الموالي مشتاقا إلى زيارة الوكالة العقارية، بدون سبب واضح... ربما لأنه تسلّل خارجا دون استئذان. حدّث نفسه بأن اللياقة تفرض زيارة أخرى، دون أن ينكر وجود استفهامات كثيرة يتمنى العثور على أجوبة لها لدى بديعة حبيبة الأمس.

ـــ ما بال أخيك في تلك الهيئة المزرية ؟... تصوّري أنني ما عرفته إلا بصعوبة.

سألها عامر مباشرة فأجابته بسؤال آخر :

ـــ لماذا لا تحدثني عن نفسك عوض السؤال عن أخي ؟

ـــ لن أحدثك بشيء قبل أن أعرف ما فعل أخوك بنفسه.

قالت أنه قضى شبابه مدللا مضيعا وقته في توافه الأمور، وتلذذ بالعيش المرفّه مستغلا تركة ضئيلة خلفها أبوه، فباعها نتفًا إلى أن قضى عليها، ولما لم يجد ما يصنع اكتشف أنه يهوى التمثيل والمسرح، لكنه لم ينجح في هذا أيضا لأنه بلا موهبة حقيقية. دخل بعد ذلك مرحلة زهد ولا مبالاة، وربما نبذ للدنيا ومظاهرها المادية، فما عاد يهتم بأكل أو هندام أو مسكن، سيان عنده أكل أم لم يأكل، نظفت ثيابه أم اتسخت، وتراه منتقلا طول اليوم من مقهى إلى آخر في الحيّ المحيط بالإذاعة لا يفارقه، مجالسا رفاقا قدامى، أو بالأحرى من بقي متّصلا به، وربما دعوه لأداء دور بسيط في تمثيلية إذاعية، عساه يساعد نفسه بأجره الزهيد، لكنه ينفق في يوم أو يومين ما حصل بيده، ويعود الى تسكّعه وبطالته. روت عنه تطفله على الزّوار

العرب، وخاصّة من لهم علاقة بالفنانين، إذيتطوّع لخدمتهم وتيسير مقصدهم. يظنونه في البداية طالب أجر فيتملصون منه، ثم يكتشفون أنه متطوع تلقائي فتأخذ العلاقة شكلا كوميديا قوامه اللهو وتزجية الفراغ. ويظهر أن أخته لم تهمل الفرصة المتاحة من علاقاته تلك، فاغتنمتها لتقديم خدمات متنوعة لأولئك الضيوف.

مسح عامر شاربيه وقال :

ـــ هل نسيت أنه ضربني ذات يوم؟

ارتفعت ضحكتها لتملأ المكتب، وشرعت تروي له ما غاب عنه من أحداث تلك الفترة التي مضى عليها عشر سنوات. أخبرته بأساليب أخيها الملتوية في التجسّس عليها، حتى أنها تضطر لتغيير طريقها من حين لآخر، كما أقرّت أنها كانت تسعد بلحظات مرورها أمام العجلاتي لتلتقي عيناها بنظراته الماكرة، لولا أن حدثت تلك الخصومة فأربكتها، وأسكنت قلبها الرعب من مؤامرات أخيها وعقاب والدها.

قلب عامر شفتيه وعقّب ساخرا :

ـــ والنتيجة أنك خسرت زوجا كان مرشحا لإسعادك، وخسر أهلك صهرا محترما يرفع رؤوسهم، لقد ضاعت منهم فرصة ذهبية... أليس هذا من رأيك ؟

ضحكت متغنّجة هازئة من كلامه، وعقبت :

ـــ يا حسرة عليك... لقد تعلمت من زواجي الأول أن المرأة هي الماسكة وحدها لميزان السعادة والشقاء، القادرة وحدها على مزج كيميائهما واستعمالها بالكمّ الذي تريد. أما أهلي فلم يكونوا بحاجة كبيرة إلى رفع الرؤوس، فالقليل من الغذاء والسرور قادر على إشباع بطونهم وحواسّهم، ولا يطلبون المزيد.

قال لنفسه :«مازالت مغرورة، لم تمسّ الأحداث من كبريائها شعرة واحدة. اسلك الطريق معها على مهل يا عامر!»

وسألها عن سبب فتح الوكالة العقارية، فانطلقت تقصّ عليه رواية طويلة، ذات تفاصيل كثيرة، وهي بين الحين والآخر تزمّ الشفتين أو ترفع الحاجبين، وأحيانا تكركر ضاحكة، أو تغلف سحنتها بغلالة حزن، أما العينان فلم تكفّا عن التحرّك والدوران يمنة ويسرة، كمن يريد باللحظ وتغيير النظرة إتمام معاني قصّرت في شرحها الكلمات.

حدّث نفسه وهو يتنهّد : « أين الأهداب الطويلة المشرئبة الى أعلى ؟... أين نظرات ناعسة أرّقتني... ألهبتني ؟ »

ـــ لم أجن من مركز الراهبات فائدة تذكر، ولا وسائل ناجعة لمجابهة الحياة. تعلمت التطريز والتدبير المنزلي وأشياء من هذا القبيل، فلما حان وقت الاعتماد على النفس لم أجد في يدي سلاحا ماضيا لمعركة الحياة. مات والدي في أيام الاستقلال الأولى وتركني أنا وأمي في رعاية أخي، فإذا به يبدّد التركة الصغيرة بسرعة، دون التفكير في عمل يضمن لجميعنا دخلا قارّا في مستقبل الأيام. كنا في مأزق حقيقي.

ـــ لذا سارعت الى الزواج.

ـــ تقدّم لخطبتي رجل يكبرني بعشرين عاما.

ـــ ولكن غني...

ـــ يظهر عليه الثراء، ولكنه في الحقيقة مفلس. قال أنه يملك مزرعة كبرى.

ـــ كان هذا يكفي في رأيكم ؟

ـــ ليس لدينا خيار آخر، تحمّس الجميع للصفقة، وزفوني الى الرجل قبل أن أفيق من الدهشة.

ـــ لو تناولت كأس الشاي من يدي في ذلك اليوم المشؤوم لخطبتك قبله وانتقلت الى بيتي، وإن كنت لا أملك في ذلك التاريخ بيتا.

ـــ وأظنك لا تملكه إلى اليوم.

وضحك الاثنان. ثم قام عامر لينصرف فأمسكت بكتفه :

ـــ مادمت لا تملك بيتا دعني أدعوك للغداء في مطعم قريب، وستسمع بقية قصّتي.

قبل أن ينتهي الغداء قال الضّيف لبديعة وهو يضع كوب الماء بحركة متأنية :

ـــ مازلت أنتظر بقية الحكاية.

ـــ سألتني عن أسباب دخولي عالم الأعمال. لِمَ سؤالك... ألا تراني أملأ مركزي ؟

قالتها متباهية، فلم يهتمّ عامر بلهجتها وإنما أضاف :

ـــ منذ تقابلنا وأنا أبحث عنك كما عرفتك أول مرّة، هل تتذكّرين ؟ أبحث عن فتاة كنت أراها تزلزل نهج الزاوية البكرية وقلوب الواقفين في النّهج دون أن ترفع عينيها عن الأرض.

ـــ لا أظنني أعرفها.

ـــ كانت تخشى تلصّص أخيها، وتعنيف أمها، وقصاص أبيها... وترتبك من نظرات الرجال.

ـــ لا أظنني قد عرفتها.

ـــ أمامي الآن امرأة تغزو عالم الرجال بكل جرأة ورباطة جأش... امرأة من زمن آخر. لا بدّ أن أشياء كثيرة حدثت.

ـــ لا تتعب نفسك... لن تجد النعوت المناسبة لوصف ما جرى. هل تتصوّر أن الدنيا توقفت عندما غبت وأطلت الغيبة ؟

ـــ صحيح... لن أجد نعوتا مناسبة مهما حاولت.

ـــ استمع الى الوقائع أولا، ثم ابحث على مهلك. باعني أهلي الى زوج عليه كل مظاهر الثراء... قصر في المرسى، هنشير في ماطر،

فيلاّ على البحر، خيول في سيدي ثابت، سيّارة أمريكية. بذخ لا ينتهي،فتبيّن بعد ذلك انه مفلس دعيّ، وإنما هو مؤتمن عدليّ على عقار فلاحيّ اختصم ورثته، فاغتنم الفرصة وبسط عليه يده، وتصرّف فيه تصرّف المالك، مختلسا الآلات والتجهيزات تارة، مزيّفا الحسابات تارة أخرى. ولم يطل به الأمد حتى افتضح وفاحت روائح ما يفعل... لاحقته الشكاوى ومطالبات الورثة، فدخل السجن لسنوات طويلة.

ـــ وبقيت تعاشرينه طوال تلك المدّة ؟

ـــ كنت منبهرة بجوّه ودنياه، ألهث وراءه لأفهم ما يحدث. ذلك أنه زجّ بي في عالم غريب، مليء بشخصيات غريبة، لاتجتمع ليلا أو نهارا إلا للتآمر أو التخطيط أو اقتسام المغانم... عصابة كواسر لا ترحم، حتى وإن تخفّوا في زيّ الأعيان وكبار الموظفين. كان بيته سوقا لا يتوقف عن المضاربات وعقد الصفقات.

ـــ وبهذا المعنى صار بيتك بورصة للقيم تُباع فيه وتُشترى.

لمحت في عبارته بعض السخرية، لكنها تجاوزتها، وواصلت:

ـــ لم أكن أفهم جيدا ما يدور حولي، نشأت وعشت شبابي في انغلاق كامل عن العالم الخارجي، لذا تصرفت ببراءة حتى وأنا أنساق في ممارسات زوجي المشبوهة، لا أقصد سوى مساعدته على تنمية مكاسب العائلة.

ـــ هذا بالطبع من واجب كل زوجة.

ـــ كم نظمت المآدب وأقمت الولائم لعصابات السّوء؟ وكم حضرت حلقات السمسرة وشراء الضمائر، مما قلب في ذهني مقاييس ومعايير كثيرة نشأت عليها.

ـــ ربما لم تعرفي هذا في شبابك الأول، ولكنه مذهب عظيم في الحياة، مذهب النّهب، عالم الزّواحف والحشرات المصّاصة.

ـــ ترسّبت عندي آثار من ذلك... تعلّمت أشياء وممارسات أردت استعمالها بعد طلاقي، ولكن بطريقتي الخاصة، مستعينة برجال ونساء عرفتهم في مدة زواجي، وعرفت طاقاتهم العجيبة في اصطياد الغنائم والوقوع على الكسب السمين.

ـــ وهكذا انطلقت في رحلة الصيد والقنص. حرام عليك !

ـــ وما الداعي الى هذه العبارات الفجّة ؟

ـــ معذرة... لنقل في رحلة الكسب الحلال.

ـــ كسب حلال... كسب حرام، لم تكن لي صلة بالفقهاء لاستخراج فتاوى بما يجوز، وما لا يجوز. إنما الثابت أنه لم يكن لي من أُعوّل عليه، خاصة وقد دخل أخي مرحلة الصعلكة الفنّية، فليس لي ما أنتظر منه.

ـــ ولماذا لم تتزوجي ثانية ؟

ـــ أبعد الخديعة الأولى تبقى شهية للزواج ثانية ؟ كنت فرحة بالانعتاق كأنما دخلت رئتي جرعة أكسجين ضخمة. فجأة قوي جأشي، وأحسست أنني قادرة على هدم الجبال... اختفت من عقلي نظرة التقدير المبالغ فيها للرجل، ولم يعد عندي هو ذلك الأب الذي طالما احترمته، والأخ الذي طالما خفت من جبروته، والجار الذي طالما احتجبت منه حياء.

ـــ ولا حتى ذلك العاشق الذي طالما انتظر مرورك واستجدى نظرة من عينيك ؟

ـــ تقصد ذلك الفتى الغامض الملتصق دوما بالجدار يخشى سقوطه ؟ ومن قال أنني لم أهتم بذلك العاشق ولم ألتفت إليه؟ ألقيت نظرات لا تُحصى، وحمّلتها معاني تملأ مئات الصفحات، لكنك لم تتفطّن إليها. درست هيئتك وحركاتك جميعا دون أن تلمح شيئا... تلك طريقة النساء ولا أظنك تعرفها.

ـــ تقولين هذا الآن، فما الفائدة ؟ أكملي القصّة. هل اشتغلت بدافع الحاجة فعلا... أم هي إرادة تحقيق الذات وإثبات الثقة بالنفس ؟

ـــ للأمرين معا... كانت فترة صعبة يتطلب عبورها شجاعة كبيرة وصبرا أكبر.

ـــ ولماذا وكالة عقارية، وكالة سمسرة ؟

ـــ لم أدخل المدارس، ولم أحذق صناعة، وما تعلمته عن الراهبات لا يشفي ولا يكفي، فلما تطلقت من زوجي إثرَ دخوله السجن استفدت بقدر ما استطعت من القوانين المستحدثة بعد الاستقلال، راوغت كما كان يفعل في عقد الصفقات، وألف لساني النطق بمفرداته وجمله ولهجته المغلفة بالصدق المحشوّة نفاقا. كان رحمه الله بهلوانا يجيد القفز على الحبال.

ـــ لماذا تقولين رحمه اللّه... هل مات ؟

ـــ من باب طلب الرحمة للأحياء مهما كان أمره وحاله الآن فهو قد هاجر بعد خروجه من السجن إلى فرنسا، ولم أعد أسمع له ذكرا.

ـــ هل تحققين من عملك ربحا كافيا ؟

ـــ لم سؤالك هذا... هل أنت متفقد ضرائب ؟

ضحكت لتخفيف حدّة السؤال. جاراها في الضحك دون أن يجيب، ثم انهمك يكمل طعامه في صمت.

تبادلا الدعوات فيما بعد مرات، ولدى كليهما شوق إلى استكمال بعض التفاصيل، او للتعليق على أحداث بقيت غامضة، لكنهما ظلاّ متحفّظين متكتّمين. أعلمها فقط بأشياء عامة تتعلق بدراسته في دمشق، وباشتغاله في إحدى الجامعات العربية، وببعض معارفه القدامى :

ـــ لم ألتق بقريبي صاحب دكان الدرّاجات منذ عودتي، وإنما أخباره تأتيني باستمرار.

ـــ هذا الرجل أتذكّره، وأتذكّر شاربه الأسود السينمائي. نسخة من « كلارك قيبل » بنظراته الماكرة... كان يتحرّش بنساء الحيّ جميعا دون أن يتفطن لأمره أحد. غازلني عدة مرات، ولم يكفّ إلا عندما لاحظ اهتمامك بي. هل لكل رجال عائلتكم نفس السيرة ؟

ضحك ولم يجب على السؤال.

ـــ ألم تلاحظي اختفاءه من الحيّ ؟

ـــ لم أتساءل... ولكن دكانه مغلق منذ زمن.

ـــ صار قيّما في مدرسة وتزوج امرأة صالحة، ولعله بسببها أو بسبب العمل الجديد قد غيّر هواياته واستقام.

كذلك لم يأت على سيرة المرأة الأنيقة... امرأة حفل السفارة، بدون أن يكون لذلك سبب واضح. على أنه ليس ممن يتبجّحون بغزواتهم النسائية. وفرضا أنه كان منهم فمن يدريه إن كانت رفيقته ستتقبّل الخبر بصورة عادية ؟ حتى وإن قبلت فلربما تطلب منه تفاصيل يبغي الاحتفاظ بها لنفسه. أو لربما تتغيّر نظرتها إليه، أو هي قد تفاتح المرأة المعنية وتكاشفها بقصتهما القديمة... وقد تحرجها ببعض التلميحات إن قصدت الإغاظة، كشأن ما يحدثه التنافس بين النساء.

مهما كان الأمر فقد احتفظ لنفسه بسر تلك المرأة... إلى أن جاءت إلى الوكالة ذات يوم فوجدته منهمكا مع صاحبتها في حوار طويل. أحدث دخولها مفاجأة، لكن الزائر أظهر لا مبالاة مفتعلة جارته فيها... تظاهرت أنها لا تعرفه، وبادلته تحية مقتضبة. عاد الى الجلوس بعد أن وقف مجاملة، ثم لما بدأ الحديث يدور همسا بين المرأتين استأذن ليدخّن سيجارة خارج المحلّ، وانسحب بهدوء، تاركا وصية لدى الراقنة أنه ذهب لتناول قهوة في الفندق المجاور.

أعجبه الهدوء السائد في قاعة الفندق فبقي ساعة كاملة، وربما أكثر، وحيدا مع فنجان القهوة ودخان السيجارة المنتشر فوق رأسه،

ضبابا خفيفا يشبه هذا الذي يمرّ فوق ذاكرته، منزاحا عن رواسب ماض قريب بعيد في آن واحد... ماض عنيد منفرس، يأبى أن يصير ماضيا ويتلاشى ككل شيئ فات أوانه، ولم يعد له في الحاضر مكان.

يعرف منصور صاحب دكان الدرّاجات كلّ شباب الحيّ، جميعهم حرفاء وأصدقاء، يكترون دراجاته للنزهة أو للحاجة. فيعاملهم أحسن معاملة، ويتحمل ديونهم وإفلاس جيوبهم، وبهذا نال محبتهم واحترامهم. أراهم يوميا حول دكانه يخدمونه بهمّة، ويقضون حاجاته. وكنت من بينهم كثير التردّد على دكان منصور، ولكن لا أكثر الاختلاط بحرفائه لشدّة هرجهم ومبالغتهم في الحركة والضوضاء، دأبي الجلوس الساكن، بجانب مدخل الدكان أو في موقع الظلّ قبالته، أتفرج على الغادين والرائحين، أو على الزّبائن في دخولهم وخروجهم، تسبقهم عجاجة الصخب والضحك بصوت يرتفع الى أعلى الشبابيك.

يأتي إلى هناك في أوقات جلوسي شاعر شاب، لا أعرف سوى أنه يشتغل بدكان خاله القريب من الحيّ. رافقه في أول لقاءاتنا طالب جنوبيّ هو زميلي في الدراسة والمراجعة وبعض فترات اللهو، كانت قد نشأت بيننا صحبة ومودّة، وتبادلنا الزيارات، أذهب إليه حيث يقطن، في مدرسة لسكنى الطلبة، وأتناول معهم أطعمتهم المتواضعة، وبعضها مصبّر جلبوه من قُراهم. أو أذاكر وإياهم بعض الدروس، أو أرافقهم إلى أحد المقاهي القريبة. وكانوا بدورهم يردّون لي الزيارة، فيأتون الى الحيّ، وهناك عرفوا منصور وسقاهم من شايه، ودعاهم

أحيانا إلى مطاعم شعبية قريبة، فأكلوا على حسابه أطعمة بسيطة ولكن جديدة عليهم، فكانوا يجدونها ألذ وأطيب من قديدهم ومصبّراتهم.

قدم الشاعر معهم مرّة ثم تعوّد المجيء وحده لقرب سكنه من المكان، وربما لأنه أنس بي وأعجبته صحبتي، وجوّ المزاح والمرح في الدكان. قدمته كشاعر فصار يؤتى له دائما بكرسي وبكأس الشاي ويعامل باحترام. وقد يطلب منه أن يقرأ الشعر عندما يهدأ المكان، فيقف عندئذ، وقد يعتلي كرسيا، وعليه مسحة الجدّ، وأحيانا مظهر التحدّي، وينشد أبياتا في الوطنية والطموح والكبرياء، وهو يصرّ أسنانه ويقسو في تحريك فكّه وشفتيه، في انفعال يتأثر به السامعون، ويدفعهم إلى الهتاف له إعجابا.

لكم تمنيت أن أجاريه في نظم الشعر فما استطعت، وكل ما قدرت عليه هو إلقاء أشعار حماسية تهزّ القلوب، ولكنها من محفوظاتي للمتنبي أو لأبي فراس، وكان صاحبي يعلق على إنشادي الشعر لغيري متباهيا :

ـــ أنا لا أستعير شعر غيري، وهل كان المتنبي سيحبّ تونس ويشعر نحوها بمثل مشاعري؟ أنا أحبّ بلدي، وأحب ناسه ونخيله وشجره وكل حجر فيه...، وكل شعري تعبير عن هذا الحب.

ويهتف له الشباب عندما يقول ذلك، فيحمرّ وجهه الأسمر ويقترح إلقاء قصيدة أخرى، فيطلبون منه الانتظار قليلا إلى أن يدور الشاي في الكؤوس وتنتشي الرؤوس.

في بعض المرات يأتي شباب من تلاميذ الصادقية بقيادة ابن عمّي الذي ارتبطت به ارتباط الأخ بأخيه.

وكثيرا ما دعا هذا الأخير كامل الفوج الى بيته للعب واللهو، أو لمشاركته بعض ما تحذق أمه « البلدية » من تصانيف الأكل العصري. والمهم أن أغلب هذه اللقاءات كان يتم في مرح ومداعبة واستئناس بعضنا ببعض، حتى لكأننا مرتبطون بأكثر من رباط، وتجمعنا أكثر من لحمة.

كانت حوارات البيت أو مدرسة السكنى تدور حول نفسها، وبعد أن تخوض في كل المواضيع تتركّز على المسائل السياسية مما تموج به الساحة الطلابية، حيث آلام القهر تشمل الجميع بالعدل والقسطاس، لكن يختصّ الطلبة الزيتونيون بمظالم إضافية، وقد بحّت أصواتهم طلبا لإصلاح التعليم وتحوير برامجه، ولمعالجة ظروفهم الاجتماعية السيّئة. قد تعنف المناقشات أحيانا وتحتدّ بسبب الإضرابات واعتصابات الجوع، والاصطدام بالبوليس الذي كثيرا ما جرّ بعض الطلبة المساكين إلى السجن أو الطرد. وزاد تنافس الزعامات الطلابية وتحاربها فيما بينها، في إدخال الشقاق وسط الشبان، وصنّفهم زمرا يدسّ بعضها لبعض، وتتبادل التهم بحماس، بدأ بالاعتداء الجسدي، وانتهى الى إشهار المسدسات والقتل بالرصاص.

عندما أتذكر تلك المناقشات أتساءل : كم كانت عقولنا مملوءة قشّا وتبنا، يكفيها شرارة خفيفة لتلتهب... وكم كان إيماننا راسخا بأن جفاف حلوقنا وصراخنا العالي في المظاهرات كفيل بحلّ القضايا وإيقاف كل المظالم، بينما الأمر كله بعيد عن مرمى أبصارنا ومحطّ أفكارنا. الخيوط الحقيقية كانت بيد الإدارة الاستعمارية، ورهينة مخاتلات قصر الباي وحاشيته الأرستقراطي ومماليك الترك، ومصالح رجال

الإقطاع من تجّار السوق، وأصحاب الأملاك، وجماعات العلماء من سلالات الزوايا والطرق الصوفية.

أتذكّر عثمان المتحمّس دوما، الذي كلما شرع في المناقشة أصرّ على الوقوف ولوّح بيده مهدّدا مزبدا كالجمل الهائج، فتضطر الجماعة، وهي جالسة أرضا، إلى رفع الأعناق بعناء لمحاورته، أو قطع حبل حديثه المتدفّق. ومن عجب أنه لا يسمعنا عندما نجذب طرف ثوبه ملحيّن في الطلب :«يا عثمان اجلس... اجلس أرضا يا عثمان لنتفاهم!» إذ يبدو كالمكلم نفسه أو المتوجّه بخطابه إلى جمهور غامض لا نراه، وبدوره هو يبدو كأنما نسي وجودنا ولم نعد حاضرين بالمكان. لكن الغريب في أمره أنه بعد إتمام تدفقه العنيف يعود إلى الجلوس وسطنا بهدوء، وهو يتلفّت حوله مبتسما مستقرئا فعل خطابه فينا.

وأتذكّر مروان، ذلك الفتى الأنيق القصير من أهل نابل، يندفع في الكلام دون انتباه إلى ضحكنا من تاءاته الملتصقة بحرف الشين، يخرجهما من بين أسنانه مع رذاذ الريق، يصيب وجوه رفاقه، فيسرعون إلى إسكاته قسرا، ولكنه لا يغضب، بل يشاركنا الضحك ويقول أن التشتشة ليست عيبا، وإنما ماركة مسجّلة وتراث عائلي يفتخر به.

وأتذكّر أيضا سعيد، ذاك الفتى الجنوبي الأعمش، لا تنفكّ عيناه تدمعان فيمسحهما باستمرار، فكأن بهما رمدا مزمنا أضاع رموشهما وضيّق حدقتيهما، لكن دون أن يطفئ منهما بريق الذكاء والتماع نظرة ماكرة لا تفوتها

واتذكّر أخيرا ابن عمّي وهو جالس في هدوئه المعتاد، يراقب ما يجري حوله دون إبداء رأي أو ملاحظة، ولما يطلب منه ذلك يعد أنه ربما يدلي بتصريح عند الانصراف أو أثناء الطريق، أو ربما في الغد عند اللقاء بدكان منصور، ثم إنه لا يعطي رأيه في أية واحدة من هذه المحطات، وإنما يسارُرني به همسا إذا انفردنا.

شعر بيد تلامس كتفه برفق، فعاد فورا إلى جوّ الفندق، ونظر إلى بقايا قهوته، ثم أدار رأسه إلى الخلف ليراها واقفة تسأل :

ـــ لماذا انصرفت ؟ لم نكن نتحدّث عن أمور سرّية، وإنما هي عادة تلك البنت السخيفة، تستطيب الوشوشة لتوحي بأهمية أحاديثها رغم تفاهة المحتوى.

ـــ تقولين تلك البنت... أليست متزوجة ؟

ـــ وماذا يهمك من أمرها؟

اشتمّ رائحة الغيرة فابتسم ولم يجب. صمتت قليلا ثم أضافت هذا التوضيح لاستباق ما قد توسوس به الظنون لعامر :

ـــ أستعين بها أحيانا، أكلفها ببعض الأعمال الدقيقة عند قدوم حرفاء مهمّين، لأنها ذكية ومرهفة الحسّ، غالبا ما تترك انطباعا جيّدا لدى الضّيوف.

لم يبد اهتماما بما قالته، وقام يريد الانصراف.

هذا المكتب الفخم لعثمان، وهذا صاحب المكتب واقف يستقبل الضيف مندهشا. انفتح فمه واتّسعت حدقتاه تعجبا من مباغتة الزيارة. مدّ يده لمصافحة حارّة محدّثا نفسه : « من أيّ فجّ عميق طلع هذا الرجل... وما الذي غيّبه هذا الزمن الطويل ليظهر هكذا فجأة دون سابق إنذار ؟ ».

فحصه بنظرة شاملة، وتوقف بصورة خاصة عند الخيوط البيضاء الملتمعة في عارضيه. أشار إلى أريكة واسعة يدعو ضيفه للجلوس، وبقي واقفا يتنحنح ويتنفس بقوّة استعدادا للتدفّق بالكلام كما هي عادته القديمة.

بادره عامر قائلا :

ـــ اجلس أنت الأول، فلن أتركك تلقي واحدة من خطبك الآن.

ضحك عثمان من كلام صاحبه وجلس مرغما... هكذا انقشعت دهشة اللقاء المفاجئ.

ـــ ملاحظاتك اللاّذعة هي عينها لم تتغير، رغم تقدّم السنّ.

ـــ أما أنت فقد تقدمت على جبهتين : في السنّ وفي الحظوة... لا بدّ أنك الآن ذو سطوة وجاه... كل ما حولك يوحي بهذا. بداية طيبة تقول أنك أصبت أهدافك ولم تخطىء المرمى.

ـــ هي الظروف قادتني الى هذا المنصب دونما تخطيط مسبق، كما قادتني قديما إلى ذلك المأزق الذي تعرف، والذي لم نخطّط له لا أنا، ولا أي واحد من رفاقنا. وأنت شاهد على ذلك.

ـــ رئيس مدير عام مؤسسة وطنية مركز هام... لا يوهب بسهولة. ألم تلهث أنت وراء هذا المنصب، أم هو الذي لهث وراءك ؟

ـــ متى تنتهي من مبالغاتك ؟ هو منصب هامّ دونما شكّ... قد أكون تمنّيته، أو جرت استشارتي بشأنه، أما « ألهث » فهذه إحدى عباراتك المنفلتة.

ـــ أعرف اندفاعك وطموحك وإلاّ ما قلتها.

ـــ إذا لم نمسك بالخطط والمراكز الحسّاسة، نحن من حرّكنا السّواكن في اتجاه الاستقلال وسطّرنا الخطط للكفاح من أجله، فلمن سنتركها ؟

ـــ بالطبع، لا يوجد من هو أولى من « نحن » الذين ذكرتهم.

ـــ لا تهزأ من قولي، فتلك هي الحقيقة.

ـــ لا أشك في ذلك لحظة.

ـــ ضاعت سنوات شبابي الثمينة الغالية بين السجن والتعذيب، ولم أستطع نيل شهادة محترمة إلا بعد أن تقدّم بي العمر، ومات أبواي دون أن يفرحا بنجاحي. إنني أستردّ الأنفاس وأحاول أن أحيا بعد أن هدّدني الاضمحلال والفناء، وأنت تعرف كم عانيت.

ـــ ولا بدّ أن تقبض ثمنا على أتعابك.

ـــ أنا لا أقبض ثمنا، أخطأت هنا أيضا، أنا أقوم بواجب نحو وطني... أساعد في إعادة بنائه وإزالة آثار المستعمر. من في رأيك بعد خروج المستعمرين يقع عليه واجب التدريس في المدارس، وتسيير القطارات، وإدارة مؤسسات الدولة وتسيير المنشآت الاقتصادية ؟

ـــ لكنني لا أراك تدرّس في المدارس أو تسيّر القطارات.

حان الوقت لكي يقف عثمان ويستعدّ لإفحام صاحبه. انتصب كالعود وراء المكتب وأجاب :

ـــ كل رجل شارك في الحركة الوطنية أمسك بالخطة المناسبة له. اهتمّ كل فرد بما هو قادر عليه، وكان من الضروري لأجل المصلحة الوطنية، وأيضا من الواجب المتحتّم على كل فرد أن...

ولما رأى الضيف صاحبه قد تحمّس متهيئا لإلقاء خطبة طويلة كالعادة، وقف مشيرا عليه بالهدوء لأنه عازم على الانصراف.

ـــ كفى يا عثمان، لا تلق عليّ خطبة طويلة فهمت موقفك وعرفت أن أمسك ونمسك هي الكلمة المناسبة هنا، وقد ذكرتها في محلّها، وكرّرتها مرّتين دون أن تشعر.

غيّر عثمان مجرى الحديث مجاملة لضيفه :

ـــ لا يمكن أن تتصرف هكذا... لماذا دفعتني إلى ذلك النقاش ونحن نتلاقى بعد غياب طويل ؟ كنت مشتاقا إلى رؤيتك. يجب أن نبقى معا وقتا أطول خارج أوقات العمل مثلا. ولم لا نتغدّى سويّة يوم الجمعة، فمكاننا قريب من أشهر الفنادق.

ـــ دع الأمر للصّدف، فلا بدّ أن يتاح لنا اللقاء ثانية.

ـــ لديّ اقتراح آخر. لم لا تزورني في البيت؟

ـــ لا أحبّ الإزعاج والتكليف.

ـــ أي إزعاج يا هذا ؟ ألم تكن بيننا صحبة وعشرة طيبة ؟ تعال لتعرف زوجتي، وهي بدورها ستسرّ كثيرا بمعرفة أحد أصدقاء زوجها القدامى.

ـــ لو كنت مكانك لاقتصرت على تعريفها بالأصدقاء الجدد. سأكلمك بالهاتف ذات مرة ونضبط موعدا.

ـــ تعال خذ الرقم قبل ذهابك... لماذا أنت متعجّل ؟

مدّ يده ببطاقة أنيقة مذهّبة الزوايا، وسأله فيما كان يرافقه الى الباب :

ـــ ولكنك لم تعلمني بمقرّك وعملك وبرقم هاتفك.

ـــ سأخبرك بكل ذلك عندما نتقابل في المرة القادمة. أنا لم أستقرّ بعد في مكان.

وأغلق الباب قبل أن يرى علامة تعجّب كبيرة على محيّا صاحبه. نزل المدرج الرخامي الفخم وفي رأسه أسئلة عديدة، ردّد بعضها في سرّه وأبقاها دون جواب.

لو لم تكن يا عثمان في الصفّ الأمامي لما استطعت أن « تمسك » بالسمكة الكبيرة التي تنعم بها اليوم، بل لما

أتيح لك أن تراها أصلا. هل وُزّعت المناصب الهامة يا عثمان للأقدر عليها أم للأقرب فالأقرب... والأكثر فالأكثر ولاء ؟

هل أذكر لك اسم محضّر أدوية «أمسك» إدارة بنك ؟ واسم حلاق «أمسك » خطة مدير للفلاحة ؟ واسم تاجر زيوت «أمسك» سفارة. القائمة طويلة فعلى من تضحك يا عثمان ؟

هل تتذكر ذلك اليوم الشتوي البارد وقد اجتمع الرفاق بدار عمي، فتغدّينا وبقينا نراجع بعض المواد العسيرة مستعينين بابن عمي، تلميذ الصادقية، على حلّ العويص من المسائل. تكفلت يومها بطبخ الشاي وتوزيع كؤوسه مع حبات اللوز المقلّي، فنستطيب التوقّف من حين لآخر للتمتّع بالسائل المنعش، مع فكاهة وتندّر يخرج بهما الضحك عاليا صاخبا، ويجتاز غرفة السقيفة ليسمعه كل من في الدّار.

كنّا ساهين عمّا يجري في الخارج، منشغلين بالمراجعة فحسب، إذ كانت تلك سنتنا الأخيرة لنيل شهادة التحصيل، ولدينا صعوبات جمّة لحذق المواد العلمية كالجبر والهندسة، لأنّ مدرّسينا الفطاحل يستخفّون بها، فلا يعطونها الوقت الكافي ولا التمرين الوافي.

قبل المغرب بقليل، خرجنا كوكبة صاخبة تشق نهج الزاوية البكرية في اتجاه محطة الترامواي بباب الأقواس، حرصت أنا وابن عمّي على مرافقتكم الى هناك، وهي فرصة لشمّ هواء جديد وإطلاق سراح دم انحبس في

السيقان لساعات، وظللنا نمزح ونضحك أثناء الطريق كأطفال صغار انفلتوا من كتّاب.

هل تتذكر أيضا أننا مررنا أمام دكان منصور فحيّانا بحرارة، واجتزناه ونحن نلوّح بالأيدي، وأشار إليه ابن عمي أننا عائدان بعد إيصالكم إلى المحطة. ثم مشينا الهوينا نتحاور إلى أن لاح آخر النهج، وبانت عربات الترامواي واقفة في المحطة، فتصايح الجماعة فرحا بوصولهم في الموعد، وطلب بعضهم من بعض الاسراع قبل انصراف العربات، ومن ثمّ جروا مودّعين بأيديهم دون أن نتصافح.

لكن ما كادت أيديكم تلامس أولى العربات حتى انقضّ عليكم رجال الأمن، لا يعلم أحد من أين انبثقوا ولا من سلطهم عليكم. ذلك أن معركة دارت قبل وصولكم بين الشرطة وصبيان باب الأقواس، تراشق فيها الجميع بالحجارة دون أن تعلموا ذلك حين خروجكم من الشارع الجانبي الصغير، فصرتم كالواقع في فخّ انفتح فكّاه ثم انغلقا بسرعة قبل انحسار الدهشة.

دوّت صفارات البوليس تصمّ الآذان، وامتلأ الهواء ضجيجا وسبابا باللغة الفرنسية، وانفتحت أبواب سيارات كالمصيدة ثم انغلقت بعنف. وسط كل هذا الصّخب سمعنا صياحكم واستنجادكم، بل احتجاجكم البريء. ولكن من كانت له حينذاك أذن ليسمع، أو ذراع ليدفع ؟

لما علا الصياح، ووصلتنا شتائم البوليس هربنا من حيث أتينا قبل أن يتفطنوا إلينا، جرينا نحو دكان الدراجات حيث ارتمينا بين الآلات وقطع الغيار كالموتى.

طلبنا من منصور إغلاق الدكان بسرعة، فلبّى الطلب دون سؤال لما حدث، لعلّه حدس حقيقة الأمر لما يعلمه من اضطراب الأحوال وتكرّر حوادث العنف المتبادل بين الشرطة والأهالي، وقد اعتاد الوطنيون حثّ الصبية على ضرب الترامواي أو سيارات الحكومة بالحجارة للتعبير عن سخطهم واحتجاجهم. تحدّثنا من خلال لهاثنا المتواصل بتفاصيل الواقعة، مستغربين تصادف وجودنا في مسرح الأحداث مع احتدام المعركة، ومتألمين في ذات الوقت من جهلنا لمصير رفاقنا، إذ منعنا الفرار من معرفة بقية ما حصل.

نظر منصور إلى وجهينا الممتقعين وهو يناولنا كأس ماء :

ـــ ما هذه الصدفة البشعة؟ حظكم الأسود رتّب وصولكم مع وصول البوليس. وما يدرينا الآن بحال زملائكم وماذا يقاسون.

ـــ أول ما لاقوهم به هو الشتم والسباب وقد سمعناه بآذاننا، ثم أحاطوا بهم وطوقوهم ولا ندري إلى أين أخذوهم.

ـــ يا ويلهم إن حشروهم في زمرة الصبيان المتلبسين.

ـــ وماذا عساهم فاعلون بالمقبوض عليهم؟

ـــ أفاعيل لا يعلمها إلا اللّه.

وجم الجميع منصتين إلى حركة الشارع الآخذة في الهدوء تدريجيا، وفجأة ارتفع صوت المؤذّن من جامع صاحب الطابع يدعو إلى صلاة المغرب. بعد انتهاء الأذان أخرجت رأسي من شقّ الباب متلصّصا، ولما رأيت النهج خاليا خرجت وتبعني من بالدكان، ومن ثمّ قصدنا دار

عمّي نجرّ خطى منهزمة، وفجأة اكتشف أحدنا اختفاء فردة حذائه اليمنى، ولما رآه رفيقه واجما حائرا راوده الضحك، لكن لم يقدر عليه ، فكل شيء حدث يومها يدعو إلى البكاء.

تلك كانت بداية الفراق الطويل. في محطة الترامواي تشتّت شمل الجماعة وافترقت طرقهم. لم يلتق عامر بواحد منهم منذ ذلك المساء البارد، ولا علم بتفاصيل حياتهم في السجون، ما عدا أنباء المحاكمة، وهذه قد شاعت فوق الصحف وعلى ألسن الناس. لقد علم أن أصوات أولئك الشبان بُحّت وحناجرهم جفّت طلبا للعدل، لأنهم ظُلموا وعوقبوا بلا ذنب، ولكن لا أحد في سلطة الحماية كان يهتمّ في تلك الأيام بسوى الرّدع، وهكذا ضاعت شكاواهم. أُخذ الكلّ بجريرة البعض، ولا بدّ من متهمين في كل يوم لتدور عجلة الرّدع الرهيبة، وتوقف الغليان الشعبي الصاخب.

ومضت سنوات أربع، دافعة إلى أسماع العائلات المنكوبة في أبنائها أنباء التعذيب وتشتيت المتهمين الأبرياء بين السجون شمالا وجنوبا، فلما صدر العفو عند الاستقلال انطلقت الفرحة المكبوتة في موجة سرور عارمة لم تهدأ أياما وليالي.

إثر عودة الزعيم الأكبر، وإعلان الاستقلال الداخلي، تواترت الأحداث وعجّل التاريخ خطاه، فلم ينتبه الناس في فورة ابتهاجهم واحتفالاتهم إلى تسريح المساجين، وعودة المبعدين من منافيهم، وحدث لقاء عابر بين الأصدقاء في زمرة المهنئين والأهل والأقارب، لم يسمح بتبادل الأشواق والشكوى من ظلم الزمن بين الرفاق القدامى. ثم انزوى عثمان وسعيد ومروان مدة غير قصيرة عند

أهاليهم، كأنما ليسمعوهم حكايا عذابهم وآلامهم، أو ليتمتعوا بالفرج بعد الشدّة، والأمل بعد اليأس.

اصطحبه أحد معارفه إلى مؤتمر ينعقد في نزل كبير، فما إن جلس على أحد الكراسي حتى لمح فتاة السفارة تقتبل القادمين الجدد، وأغلبهم من الأجانب والضيوف العرب، تقودهم إلى أماكنهم، وتجيب على أسئلتهم، موزّعة ابتسامتها بسخاء على الجميع. ولما لاحظت وجوده اتسعت الابتسامة. حيّاها بيده من بعيد وهو يفترض أنها تؤدّي دور المضيّفة لحساب شركة تنظيم المؤتمر، أو قد تكون مكلّفة من طرف صديقتها بديعة.

في استراحة تناول القهوة اقتربت منه وبيدها رزمة وثائق المؤتمر وسألت :

ـــ كيف ألقاك حيثما أذهب... هل أنت في كل مكان ؟

ـــ متى تنهين عملك ؟

ـــ أرافق آخر المجموعات إلى الهلتون في السابعة مساء.

ـــ سأكون في الموعد... تجدينني هناك.

ـــ انتظر حتى أوافق.

ـــ أنت حرّة، لكنني سأكون في الهلتون، هكذا بمحض الصدفة.

غابت في الزحام. سَرَّها تذكّر الرجل لها بعد فترة طويلة من لقائهما الأول. ولكن فرحتها لم تدم طويلا، إذ سألها وهما يتعشّيان في مسكنه عن صاحبتها وعن طبيعة علاقتها بها. لم تفهم نواياه الحقيقية، وأحسّت بالغيرة. ما باله يهتم بصاحبة الوكالة في ليلة وهبتها له وتفرّغت فيها لمؤانسته؟ ما الذي ذكّره بها؟ هل تكون بينهما علاقة سابقة ؟ ربما، والدليل أنه يزورها في مكتبها.

تخابثت وتجاهلت أنها شاهدته في الوكالة العقارية ذات يوم، حتى أنه سلم عليها بفتور ثم غادر المحلّ. لكنها لم تستطع لجم فضولها :

ـــ عندي سؤال غير بريء. ماذا كنت تفعل في وكالة بديعة ؟

ـــ زيارة عابرة... لا أكثر، قضاء شؤون خاصّة.

ـــ هل كنت تنوي شراء فيلاّ في منفلوري أم ضيعة في بوعرادة ؟

تجاهل سخريتها واتخذ لهجة جادّة:

ـــ بديعة صديقة قديمة... قديمة منذ وقت لا يخطر على بالك.

ـــ من عهد آدم وحوّاء تقريبًا ؟ ما أشدّ مكر الرجال... وأظهرت يا سيدي حين رأيتك في مكتبها أنك حريف عابر.

ـــ تجنّبت إحراجك أنت بالذات.

ـــ وما عسى يحرجني من صديقتي الحميمة ؟ لا أحسبك تعرف أن لا أسرار بيننا.

ـــ أحسبني أعرف أنها لم تخبرك بشيء يخصّني.

ـــ هذا صحيح... كيف يا ترى لم تحدّثني عنك أبدا ؟

ـــ لأنها لم تجد ما تحدّثك به عني. علاقتنا ليست من النوع الذي يُحكى في أسمار النساء.

ـــ شوّقتني... لا تقل أنكما تعاشقتما. لكن كيف لم تظهر في صحبتها طول هذا الوقت الذي مضى ؟

ـــ كنا عاشقين. أو بالأحرى أنا عشقتها، أما هي فلا أدري.

اتسعت عينا المرأة وتلهّفت لمعرفة التفاصيل، ولكن عامر لم يشف غليلها، ناولها جملا متقطعة لم تستطع أن تنسج منها أسطورة من صنف ما تراه في الكتب والمجلات. تلذّذت فقط وهو يحكي، بتصوّره واقفا عند المنعطفات ينتظر مرور الحبيبة، وتصوّرت تلهّفه وهو يدير رقبته يمنة ويسرة إلى حين ظهور قوامها في أول الطريق. وتخيّلته يبتسم حين يراها وترقّ نظراته حنانا حتى يكاد الدمع يغزوهما، بينما

هي تمشي في خيلاء غير مبالية بالعاشق المنتظر، أو تعجّل الخطو خائفة من أعين الوشاة والرّقباء، فلا نظرة ولا ابتسامة، بل حتى الالتفات ممنوع. وتخيّلت قلبها يدقّ عند اقترابها من موقف الفتى، وخدّيها يلتهبان، وخطاها تتسارع لتغطية الارتباك وإنهاء لحظة الخطر.

ـــ لا بدّ أنها عشقتك أيضا، لكنك لم تعلم... وكيف يمكنها إعلامك والصلة منقطعة تماما ؟.

ـــ يجوز أنها أحبّتني، ولكنها لم تُظهر ذلك.

ـــ أنا أعرف طبعها الناري، من المستحيل أن تمرّ بمنطقة الضغط العالي دون أن تصاب... دون أن ترتعش ولو قليلا.

ـــ ها هي كالمارد الجبّار لم تصب بأذى. إنها أقوى وأعتى مما تركتها عليه منذ عشر سنوات. أين تلك الفتاة المحتشمة التي تعثّرت في ثيابها وكاد أن يغمى عليها يوم خصومتي مع أخيها ؟ أهذه التي توجّه إليه الأوامر والنواهي اليوم، هي نفسها التي ارتعدت فرائصها لما اكتشفت أنه يراقبها ويتجسّس عليها ؟

ـــ تعني تغيّرت كثيرا ؟ هذا صحيح... لم تعد هي ذاتها، وكذلك أخوها لم يعد هو ذاته. في أيامنا هذه قويت شوكة النساء قليلا، كما انطفأ جحيم الرجال قليلا.

ـــ متى حدث هذا ؟

ـــ في السنين العشر الأخيرة. واضح أنك لم تكن هنا.

ودون أن تنتظر تعقيبه أخذتها نوبة هستيرية من الضحك لم يفلح عامر في إيقافها.

ـــ ألا تكفّين عن ضحكك السخيف ؟... ماذا خطر لك حتى ضحكت هكذا بجنون ؟

ـــ خطر لي منظر أصحاب الكهف وهم يدخلون المدينة بلحاهم الطويلة سائلين الناس : ماذا جرى... ماذا جرى ؟

ـــ وتصوّرت أنني واحد منهم... أليس كذلك ؟

ـــ نحن نتسلّى بالحديث فلم لا نضحك؟ لا تقلبها خصومة !

ـــ هل يعني ذلك أن الرجال والنساء تبادلوا المواقع ؟

ـــ لا، بل أقول أن الإناث رفعن الصوت قليلا، وأن الذكور خفضوا الصوت قليلا. وهكذا استوى الحال وصار الميدان بلا تضاريس، لا سادة ولا عبيد، وكل الدنيا سهول.

ـــ وصاحبتك اغتنمت الظرف. وجدته مناسبا لحالها بعد تخلّصها من زوجها.

ـــ بالعكس، الظرف هو الذي وجدها مناسبة لأداء الدور المطلوب. أمسكت بيدها أمر المال والأعمال بعد ما ظهر من تورّط زوجها وخيباته المتواصلة، وبعد ما بدا من خساسة أخيها وامتلاء رأسه بالهواء.

ـــ هل هي أذكى منه ؟

ـــ هي أذكر منه.

ـــ لا تزيدي من قلة الحياء.

ـــ لماذا تنزعج ؟ ألا نقول في المرأة ذات الحزم والعزم أنها « ذكرة » ؟

ـــ وصف مستعار غير حقيقي، ومثله أن يقال للرجل الرّخو « مراوي ».

ـــ فلنأخذه وصفا مستعارا بصورة وقتية. ولكن لن تحتاج إليه النساء كثيرا في المستقبل عندما تفقد الذكورة ألقاب شرفها. القضيّة تتعلق بالثقة في النفس لا أكثر. وسترى في المستقبل كيف أن رجالا لن يخجلوا من حالهم إذا كان لديهم من الرقة واللطف والميول الفنية ما يجعلهم أقرب إلى النساء، وسوف لن تلصق بهم تلك الصفة التي ذكرت... سيقال أنهم رجال مهذّبون، أو أنهم ظرفاء ليس إلاّ.

بقي ينظر إليها صامتا واضعا ذقنه بين كفّيه، ولم يعقّب على كلامها. أحست كأنما أحرجته فابتسمت ملاطفة، وأضافت :

ـــ انظر إلى صاحبتك... إنها لو لم تسترجل لضاعت في الزحام، وربما داستها الأرجل دون رحمة. إنها خلعت الرجل الفاسد بعدما قادته أفعاله الى السجن، واستفادت من دروس علمتها إياها الحياة ومخالطة البشر، ثم قادت سفينتها وحدها. لم يكن الأمر يسيرا في البداية، ولكنها كالعفريت المنطلق من قمقم، لم تظهر للناس غير الصرامة والبأس الشديد لحماية مصالحها، مع أنها أنثى تكاد تسيل كالماء إذا وقعت في حضن المحبوب.

وأطلقت ضحكتها المستهترة، فجاراها عامر بابتسامة مقتضبة، وسأل :

ـــ وكم عدد محبّيها في رأيك ؟

ـــ بعدد النجوم... اللّهمّ لا حسد.

ـــ اتركي الدّروشة جانبا وأجيبي على سؤالي.

ـــ إنها من النوع الذي يعد كثيرا ولا يفي إلا قليلا. وأنا لا أحضر عادة إلا موكب توزيع الوعود، ولا أحضر أبدا مواعيد الوفاء. صدّقني فأنا لا أعرف شيئا عن علاقاتها الحميمة.

ـــ هل تقصدين أنها صعبة المراس ؟

ـــ أنت أدرى بها مني... ولكني نسيت أنك كنت غائبا عن حياتها لفترة طويلة. هل تريد بأسئلتك معرفة ما ذهبت به الأيام من طباعها وما أبقته ؟

ـــ ليست هذه هي رغبتي.

ـــ لم هذا البحث البوليسي إذن ؟

ـــ سهرنا كثيرا الليلة. هيا نكمل حديثنا في الفراش.

أطلقت نفس الضحكة الفاجرة وتفنّنت فيها. ظنّها تسخر من قصته مع صاحبته فلم يبتسم، بل مسح شاربه بأناة وقد اشتد غيظه. قام، كاتما أحاسيسه فأخذ معطفه من المشجب، وقال :

ـــ لم أعد أشعر بحاجة الى النوم.

ـــ ألم تقترح إكمال الحديث في الفراش ؟

ـــ غيّرت رأيي، أشعر بحاجة الى المشي وشمّ الهواء الليلي.

ـــ هل نتمشّى ونعود ؟... لا أطيق ندى الليل.

ـــ بل سأرافقك إلى بيتك. أرغب في النوم وحدي هذه الليلة.

ـــ أخاف عليك من الكوابيس يا عزيزي.

زمّت شفتيها والتصقت به هازئة، فدفعها برفق نحو الباب.

لماذا نفرت من هذه المرأة ؟ ماذا فعلت حتى أخرجها شبه مطرودة ؟ منذ لحظات كنت أدعوها إلى الحديث في الفراش، فماذا أزال اشتهائي لرائحة جسمها القوية، ومشاركتها أنواع الرياضة الحميمة التي تحذقها كل الحذق ؟

حذائي يضرب أرض الشارع الفارغ فأسمعه وأنا أمشي وحيدا تقودني خطاي بلا هدف محدّد. كذبت العاهرة وهي تقول : « لا أعرف شيئا عن علاقاتها الحميمة». لهجتها مليئة بالسخرية وهي تدسّ النّميمة لصاحبتها في قوالب المدح المبطّن :«محبّوها بعدد النجوم ! » لم لا تقول بصراحة أنها مومس مثلها رغم التظاهر بأنها امرأة أعمال ؟ ختمت كلامها : « أنت أدرى مني ! ».

هكذا خاطبتني وهي تشتهي لو أضافت إلى جملتها : « يا مغفّل ! »

هل كان ضحكها كله سُخرية وهزءا منّي ؟ لعنت نفسي ندما على اندفاعي في رواية قصّة الحبّ القديم... وها أنا أقف فجأة لأسأل نفسي :«وهل كانت قصة حبّ بالفعل ؟ ، دعنا من لعب الأطفال !

لم يتماسك عامر عن زيارة صديقه الشاعر. قصد بيته في نفس يوم قدومه من السفر. صعد الطوابق الأربعة متلهفا للقاء جزء من ذلك الماضي الجميل، في محاولة لإعادته إلى الحياة من جديد. مهما كانت خيباته وجراحه، ومهما كان أرعن طائشا. فقد توقظ انتعاشته أحاسيس قديمة، آلمت روحه كثيرا، ولكنها في نفس الوقت ألهبت حماسها، ودفعتها نحو إثبات الذات، والشعور برفعة الحياة وقيمتها.

وهو في الطابق الأول تذكّر كيف كانت ممازحة الخلاّن تضايق الشاعر إذا وصلت الى سؤاله عن موطنه الأصلي، أو المكان الذي درس فيه، أو العمل الذي يرتزق منه ويجهلونه، وكيف كان يصرّ ألا يرافقه أحد إلى محلّ سكناه. أحاط وجوده بالسّرّية والغموض... كل ما عرفه الجميع أن خاله يؤويه منذ قدم من بلده البعيد، وأنه يأبى أن يكتشف أحد بيت هذا الخال. كان يحاور في كل موضوع ويقبل انتقاد شعره، أو التندّر بلهجته الجنوبية دون أن يغضب، إلا إذا انزلق الحديث إلى تلك المواضيع، عندها يصمت ويأبى الخوض فيها.

لما بلغ عامر الطابق الثاني ابتسم وهو يتذكر احتفالا وطنيا قام فيه صاحبه منشدا لإحدى قصائده الملتهبة، وما إن علا التصفيق والهتاف حتى داهمت شرطة الاستعمار المكان وفرّقت الجميع بالعصيّ والهراوات، ومنها أصابه قدر غير قليل جعله يقضي الليل بين وجع وأنين، ممسكا بأطراف من جسده، وكلما ضحك من حركاته الأصحاب صاح فيهم :

لست بغلا مثلكم. جلدي حسّاس مثل أعصابي. مشاعري ووجداني تمرّ مع الدّم في نفس العروق. لا أتحمّل وقوع ذبابة على زندي، وأنتم ما شاء اللّه لا تفلّ ظهوركم الهراوات.

يغرق الشبّان في الضحك، ويغني أحدهم :

مرّ النسيم يجرح خدّيه ولمس الحرير يدمي بنانه

فيسبّ ويشتم ويهمّ بالخروج، فيمسك الجميع بثيابه معلنين التوبة عن مضايقته. يجلس عندئذ مستسلما رافعا كفّه إلى خدّه الأيمن ليمسح دمعة غافلته.

هل هذا مسكنه ؟ لا ... إنني مازلت في الطابق الثالث، بينما يشير العنوان لديّ أنه لم يرض بغير المكان الأعلى والأقرب إلى السحاب. أتذكّر الآن نشيدا قرأه علينا قبل نشره في الصحف :

طموح يؤجّج فينا الدّما ويدفعنا للعُلى قُدُما
وشوق لتشريف هذا الحمى مهيب بنا أن نُرى أنجما

لا بدّ أنك تلمس النجوم من نافذتك ليلا يا صديقي، فتتغزّل فيها بقصائد تذوب رقّة وعذوبة، بعد أن كنت تلهبنا حماسا بقصائدك الناريّة عندما يجتمع الرفاق. مازلت أتخيّلك تقرأ علينا شعرك في دار عمي أو في دكان منصور وأنت تصرّ على أسنانك غضبا ونقمة :

أناس تعيش وناس تموت بحكم الدبّابة والمدفع
فإن دام هذا فيا شقوتي ستذوي أمانيّ في أضلعي
ألا فاسكبي يا جراح الأسى ولا تستقرّي ولا تهجعي

فنصفّق لك، ونرفعك أحيانا على أكتافنا، شاعرين بأنّا صرنا نُحبّك أكثر.

نظر عامر عند وصوله الطابق الرابع في ورقة عليها رقم الشقة، حسب معلومات استقاها من بعض المعارف، نفس المصدر أخبره أنه انتدب للعمل مراقب برامج في الإذاعة.

ابتهج للخبر، وتحمّس للقاء صاحبه حتى يهنّئه بقفزة اجتماعية لم يتصوّره يحظى بها أو يطمع فيها.

رسم الزائر على شفتيه ابتسامة عريضة. دقّ الجرس، ومنّى النفس بمعانقة وترحاب حارّين من صديقه الرقيق المشاعر الشفاف الإحساس. كان مشتاقا بالفعل لمرآه بعد سنوات غياب طويلة. فتح الباب على كامل عرضه، ووقف الشاعر يملأ الفضاء بقامته المديدة، مرتديا بيجاما مخططة وبيده منشّة بعوض. زاد عامر من اتساع ابتسامته أملا في تسريب فرحة اللقاء إلى صاحب البيت، لكن هذا بقي جامدا كأن ملامح الضيف لم تتضح في ذهنه. قال عامر مرتبكا :

ـــ ها أنا جئت من السفر... فكيف حال شاعرنا ؟

ـــ آ اه ! هل جئت فعلا ؟ أين كنت ؟

ـــ ألا تراني أمامك؟ جئت فعلا لا قولا ... كيف حالك؟

ـــ منعني الذباب اللعين من النوم وحطّم أعصابي... فبقيت أطارده كل ساعات القيلولة.

ـــ بادرت بزيارتك متعجّلا لأطمئن على أحوالك. فعلت هذا قبل زيارة بعض أهلي.

ـــ أنا بخير لو لا هذا الذباب.

ـــ مادمت بخيرفهذا عظيم، وسأراك فيما بعد عندما لا يكون هناك ذباب.

ـــ انتظر...هل عرفت أنني صرت أعمل في الإذاعة؟

ـــ علمت بهذا وأهنّئك، والآن بعد الاطمئنان على المستقبل ننتظر منك شعرا كثيرا.

ـــ تستطيع زيارتي في الإذاعة. لديّ مكتب مع ثلاثة زملاء آخرين، أظنك تعرف واحدا أو اثنين منهم. لا تنس أن تأتي معك ببطاقة التعريف، فالحرّاس لا يدعون أحدا يدخل إلا بعد أخذ بطاقته في الباب.

وصلته بقيّة الجملة الأخيرة وهو يكاد يصل الطابق الثالث نزولا. وبعد أن كان يصعد الطوابق الأربعة ونفسه تحتدم بالأحاسيس والمشاعر، وعضلات وجهه تتحفز للابتسام والضحك، وجد نفسه ينزل نفس الطوابق ولا شيء يملأ نفسه أو تجيش به عواطفه. خرج إلى الشارع وفؤاده فارغ، وليس لديه اتجاه محدّد.

تقفز إلى ذهني صورة الشاعر في الليلة الثانية من إعلان الاستقلال. كان اعتلى منصة احتفال جرى بالمناسبة في باب سويقة، وأمسك مصدحا صهل فيه كالجواد الجامح وسط جموع محتفلة بالانعتاق والحرية، أخذت تهتف له مستجيبة لشعره، نابضة بنفس أحاسيسه. شاهدته يومها وخفق قلبي مع كل كلمة سمعتها منه، وبلغ بي التأثر حدًا انغرز به حبّ الوطن ونبذ الظلم والاستبداد في نفس مكينا قويا.

صروح الظلم مازالت تهدّ وينزل من علاه المستبدّ
ولا يبقى على الأيام باغ تدول به وما مـن ذاك بدّ

وتعود إلى مخيّلتي صورة الشاعر في فتحة الباب، يلقاني بعد غياب سنين طويلة، وأتهيّأ لاحتضانه شوقا، فيقف أمامي جامدا كأنما لم يفارقني إلا البارحة، وأرى

بيده منشة الذباب عوض المصدح يصهل فيه بقصائد نارية تهز الجمهور وتلهبه.

كنت أنوي الجلوس إليه لأشكوه ما لقيت في غربتي من ألم وعذاب، وأعلن له عن فرحتي بما بلغه من رفعة شأن، بعد فترة شباب قاسية وظروف صعبة كادت تودي بمستقبله كله. لكن صاحبي كان حينها يجتاز مرحلة تبلد فكري وبرود عاطفي، أم تراه نسي أصحابه حتى إذا غاب أحدهم من دائرة النظر اختفت ملامحه من الذاكرة تماما. هل هو عارض من العته، أم الغياب والتهويم الذي يبتلى به الشعراء أحيانا؟

ذهب عامر بعد أيام لزيارة الشاعر في مكتبه بدار الإذاعة. ترك بطاقة التعريف في المدخل وقصد مكانا دلّه عليه الحاجب. وجد صاحبه في قاعة فسيحة تضم موظفين منكبّين على أوراق يتفحّصونها. ظلّ الجميع ساكنين عند دخوله إلا صاحبه انتفض من مكانه، وجاء لمعانقته على خلاف ما فعل سابقا. وبدون تحيّة شرع يقدّمه لزملائه بطريقة مسرحية، رافعا صوته كما يفعل عند إلقاء الشعر :

ـــ يا جماعة... هذا صديق صبا وزميل دراسة. حبيب صفاء وخلّ وفاء. عشنا معا ساعات الجدّ والاجتهاد، وقاسينا معا آلام المطاردة والاضطهاد من أعوان الاستعمار وأذنابه. غاب عنا سنوات طوالا لإتمام تعليمه العالي ببلاد المشرق، ثم ها هو الطير البارّ يعود إلى وكره.

تدفّق يخطب، وقد رفع الجماعة الرؤوس عن أوراقهم، وفحصوا الزائر طولا وعرضا محاولين تذكّر سحنته، باحثين عما فيها من شبه

ببعض أعيان البلاد ووجهائها. ولما يئسوا عادوا إلى أوراقهم يفحصونها بعد أن همهموا بكلمات، قد يكون بعضها عبارات ترحيب مهذبة.

أحسّ الضيف بالحرج، لكن صاحبه لم يترك ذراعه إلاّ بعد إنهاء كلامه، دون أن يدعوه للجلوس، وإنما أضاف بحماس مماثل :

ـــ دعك من هؤلاء الجلاميد، وتعال معي الى المكتب المجاور، وسترى هناك قمرا امتلك روحي واستبدّ بفؤادي.

ـــ دع الأمر إلى مناسبة أخرى.

ـــ لا تتحرّج يا رجل. هل تريد أن أدعوها إلى هنا؟ اسمع لا بدّ أن تراها.

لم ينتظر الجواب. خرج بسرعة ثم عاد يجرّ فتاة ذات شعر طويل أشقر، ودفعها بين يدي عامر ليسلّم عليها.

ـــ مرحبا سيدتي...

ـــ آنسة من فضلك، لم تنفطم إلا منذ أيام معدودات. إنها فتاة أحلامي وملهمة أيامي. انظر الى هذا البهاء، تأمّل انسكاب الجدائل الذهبية، هل رأيت مثل هذا في المشرق؟ أما هنا فقد بحثت ولم أعثر.

أحسّت البنيّة بالحرج فشغلت نفسها بتحية باقي الزملاء. جعلت صوتها خافتا كأنما تريد قطع الطريق على مبالغات العاشق، ولكن مع إحساس مكتوم بنشوة الغرور.

ـــ أنا مسرور جدا بلقائك يا آنسة، ولا بدّ أن فريق المحررين ومتابعي البرامج سيدعّم بوجود عناصر نسائية مثلك بينهم.

تدخّل الشاعر فورا :

ـــ لا... هي لا تحرّر ولا تتابع. هل تظنها مثل الأصناف الخشنة التي تملأ هذا المكتب؟ إنها خلقت لتنطق بكلمات الحبّ، وتتلو ما

تزفر به أفئدة الشعراء... إنها هنا لتعطي الكلمة إشراقا، وللكلام طلاوة أضاعتها أنامل غلاظ الرجال... إنها أحسن وأجمل مذيعاتنا الجديدات.

قال الضيف مجاملا :

ـــ يا ليت الراديو يبرز الصورة مع الصوت، ليكون وقع الكلمة أبهج للنّفس، وتأثيرها أعظم.

ضجّ الشاعر بالضحك وأكثر من التحرّك حول الزائر وحول المذيعة وهو يردّد :

ـــ صحيح... سيكون الأمر عجبا... ما رأيك لو تبرز الصورة مع الصوت؟ سأصوغ هذه الفكرة في بيت شعري أو في قصيدة. هل رأيت الإلهام الذي يشعّ من هذه الحورية يا صديقي ؟

لم يشعر الضيف بوجود ذلك الإلهام، وإنما كاد يصاب بعدوى الاهتياج والانفعال من حركات صديقه المتوترة.أحس بالحرارة في وجنتيه، وبأن رقبة القميص ضاقت قليلا. ثم خرجت البنت عائدة إلى مكتبها يصاحبها الشاعر العاشق. انتظر الضيف واقفا عودة صاحبه دون جدوى. ولما قدّم له أحد الموظفين كرسيه ودعاه للجلوس اعتذر، وخرج لاسترجاع بطاقته من الحرّاس، والارتماء في هواء شارع الحرية.

لم تمض على ذلك اللقاء سوى فترة قصيرة ... ثم زار عامر مقهى حيّهم القديم قرب الزاوية البكريّة، لإشباع حنينه إلى ساعات أُنس قضاها فيه. هناك التقى بصاحب المحلّ المختلي دوما في أحد الأركان بالشيشة وقفص العصفور، فأخبره أن صديقه الشاعر جاء يسأل عنه منذ أيام، ليطلب منه المساعدة على توزيع ديوانه الجديد، وأنه لم يفده بأي خبر. وسحب القهوجي في الحين نسخة من الكتاب كانت في درج قريب من يده:

— اشتريتها منه على سبيل التشجيع. أنا أحب سماع الشعر ولا أقرأه. لقد قال أنه دفع في طباعته مالا أحمر، فهل صحيح أن الطباعة غالية الى هذا الحدّ ؟

لم يجبه، وإنما بقي يقلب الصفحات باهتمام، والرجل يقرقر ماء الشيشة، ولما رأى اهتمام الضيف وإطالته النظر في الكتاب قال له :

— يمكنك أخذه... فأنا لا أفهم ما كتبه صاحبك.

أعاد إليه نسخته معتذرا، موصيا إياه بالاحتفاظ بها للذكرى، وقائلا أنه سيشتري أخرى من أول مكتبة تصادفه.

ينتابني إحساس غريب وأنا أفتح دفّتي هذا الكتاب. إنه طازج... جديد، رائحة الحبر تعبق من أوراقه البيضاء. أتصفّحه بتلذّذ وفضول، ثم أستلقي على الفراش لأبدأ القراءة. لفتت انتباهي إحدى القصائد وأثارت فضولي، استويت جالسا وقرأت :

حيّ للبعث شعاعا قد بدا ينهب الأفق ويجتاح المدى
عبقريا بجّست ينبوعه صخرة الحقّ على هام العدا
مذ أشاع الموت في قلب الدّجى هائضا منه الجناح الأسودا

أطربني الشعر فابتسمت مبتهجا، لكنني تجهّمت فجأة ولعنت صدفة جعلتني أبدأ قراءة الديوان بهذه القصيدة، ومع ذلك واصلت :

حمد القوم السّرى واستبشروا بالذي أهدى إلى السّاري الهدى
بوليد جلّ من ألهمه وُلد التحرير لما وُلدا
أطلعت طلعته صبحا به بصّر الأعمى وأعمى الأرمدا
فهو من فكّ عقالا طالما عقل العقل، وما انفكّ يدا
بأبي أفدي المنستير التي...

أغلق الديوان ممتعضا... ماذا أصاب هذا اللعين حتى انخرط في لعبة النفاق من أول يوم ؟ أعرفه مجنونا ومتهوراً وهذا سرّ طرافته، ولكنه الآن وصولي ومرتزق... يهذي بالشعر ويتملق به.

صحيح إذن ما سمعته في دوائر الأدباء من أن شخصية صاحبي انفصمت إلى حالتين متراكبتين : إحداهما حالة الشاعر المنطلق بتجربته نحو النضج، المتعامل بوعي مع الأحداث، وهو أمر نادر بين شعراء الجيل، وحالة ثانية ... هي أشبه بحال من أخذته تقلبات الأحداث على غرّة، فخلخلت توازنه، وجعلته يعيش ممزّقا بين حلمه الطوباوي، وواقع مرير يفضح ممارسات دعاة الإصلاح والعدل، المتوقّفون في حدود النوايا، ويطير ورقة التوت عن عوراتهم . واقع مرير يرفضه، لكنه مُجبر على التعامل معه عاريا قاسيا كما هو.

وحكى لي البعض عن مجالس الهذر في «بار الكانيڤو»، تجمع حوله كل دعيّ ومتطفّل ولا تنفضّ إلا في أواخر الليل، فيصرف عليهم من الوقت والمال ما كان أولى له الانتفاع به. ومن طيبته لا يشعر بسخف أولئك المتزلفين، بل كلما دغدغوا كبرياءه، وبالغوا في امتداح شعره، ذهب به الظن إلى أنهم جمهوره ومحبّوه وعماد شعبيته، حتى لا يتردّد في وصف من يسخر منهم بالحسد والغيرة.

حلّل أحدهم إحدى قصائده وحمّلها اعتسافا معاني سياسية لم يتفطّن لها غيره من قبل، فظن الشاعر نفسه يصلح للسياسة، ومن توّه بدأ يواظب على الاجتماعات الحزبيّة، مهيئا نفسه لانتخابات البرلمان. كما أعلن يوما

أنه سيدخل ميدان التلحين لأنّ إحدى المغنيات طلبت منه قصيدة لتغنيها، وعبّرت عن إعجابها بما في شعره من موسيقى.

ولأنه وجد من يساعده على نشر ديوانه ظنّ الأمر يتم دوما بنفس السهولة، ففكّر في إنشاء دار نشر، وربما إصدار مجلة أدبية يتنفس فيها أبناء هذا العهد الجديد. وهل مجلاّت «الثريا» أو «المباحث» أو «العالم الأدبي» أقدر منه على ضمّ الكفاءات أو استنهاض الهمم؟...

حدّثوني عن مجالسه المملوءة هذرا وأحلام يقظة، فإذا ذهب إلى مكتبه صباح الغد، أنساه إياها صداع الرأس، وأوجاع عشق تلتهب نارًا وأُوارًا كلما قابل في الإذاعة ذات الشعر الأشقر الطويل.

لم يترك ذلك الفتى الأعمش أثرا يدلّ عليه. بحث عنه عامر لدى المعارف والأصدقاء، وزار أماكن سكنها أو تردّد عليها، فما ظفر بما يرضي فضوله. ذات يوم شاهد صورته في صحيفة وصفت زيارة وزير الفلاحة إلى الجنوب. كان الرجل إلى جانب الوزير فوق منصة عالية، وقد عظمت جثته بشكل غير عادي وازدادت عيناه ضيقا، لكن ملامحه بقيت دون تغيير، وهي التي دلّت صاحبه عليه. عرف من الخبر أن اجتماعا يتعلق بالرّيّ والزراعات السقوية، جمع الوزير بوجهاء المنطقة وفلاحيها الكبار لبحث قضاياهم وما يخدم مصالحهم. فالرجل قد عاد إذن إلى منطقته وصار من وجهائها وكبار فلاحيها.

طلب عثمان هاتفيا لأول مرّة منذ لقائهم الأول وسأله :

— أنت تعرف أين يوجد سعيد الآن ؟

ـــ أعرف أنه استقرّ في جهته واشتغل بالفلاحة.

ـــ ولكنك لم تقل لي ذلك.

ـــ لأنك لم تسألني.

ـــ ومتى تعلّم الفلاحة ؟ هل ورث عن أبيه أرضا ؟

ـــ أبوه كان عاملا فلاحيا في أرض أحد المعمرين.

ـــ فهل اشترى تلك الأرض ؟

ـــ لا... وإنما استرجعت الدولة تلك القطعة وكلفته بإدارتها واستثمارها عوض بقائها مهملة، أعني بصورة مؤقتة.

ـــ وهل استطاع ذلك؟

ـــ ساعده أبوه وأعمامه، وأظنه اشترى جزءا من الضيعة فيما بعد، أو تمّ التفويت له في البقية بعد أن اتضحت الأمور العقارية مع حكومة فرنسا... لا أملك كثيرا من التّفاصيل.

وسافر عامر الى مدينة قفصة فوصلها ليلا، ومنذ نزوله الفندق طلب هاتف سعيد في المزرعة. اندهش الرجل عند سماع صوته، وبعد صمت قصير بدأ يرحّب بزائره مقسما أن يأتي لأخذه في التّو واللحظة.

ـــ حدّثني عنك عثمان بالهاتف، وقال أنك تنوي زيارتي، لكن لم يقل متى.

ـــ لابأس.. أحببت أن تكون مفاجأة. ابق مكانك وفي الغد نتلاقى في الفندق.

ـــ أبدا... سآتيك حالا، المسافة ساعة واحدة أ وأقلّ.

ـــ أقسمت عليك أن لا تأتيني في هذا الليل، فأنا محتاج الى الراحة بعد السفر الطويل.

ـــ لديّ مسكن جميل في المدينة كان من اللازم أن تنزل فيه لو أعلمتني بموعد قدومك.

ـــ لا ضير... غدا نتلاقى على راحتي وراحتك.

جاء سعيد يوم الغد في أول الضحى ليأخذ ضيفه. فهبّ صاحب الفندق والموظفون لاستقباله، معتبرين وجود هذا الرجل الوجيه في محلّهم حدثا هاما، وندموا على عدم بذلهم عناية خاصة للنزيل الذي جاء سعيد يستقبله ويحتضنه بين ذراعيه، ثم يصطحبه الى سيارة فخمة ربضت قرب الباب في حراسة سائق أسود.

بعد جولة قصيرة قضى فيها سعيد حوائجه من أسواق المدينة، سلكت السيارة طريق الريف، والصديقان مستغرقان طول الوقت في تبادل الأخبار وتذكّر أيام الشباب، يتخلل ذلك فكاهات يطلقها سعيد من حين لآخر بلهجة ريفية عادت إليه أشدّ مما كانت أثناء مقامه الأول بالعاصمة. ذلك أنه حاول مرغما في ذلك الوقت التخلص من تعابيرها، لما رآها تدفع دوما أصحابه الى الضحك منها ومنه.

ـــ كيف طاب لك ترك العاصمة والانزواء في هذا الريف البعيد ؟

ـــ إنه ريف أبي وجدّي، فما العجب أن أعود إليه ؟

ـــ ولكنك كنت كثير الشكوى منه ومن أهله وعاداتهم. هل نسيت ما لحق أباك وأعمامك من ظلم المستعمر واستيلائه على أرضهم ؟

ـــ وما ذا فعلت أنا غير العودة الى الأرض ذاتها ؟

ـــ تلك كانت أرضهم... أما هذه فليست لك.

ـــ إذا كانت لك فيها استحقاقات فهات عقودك لنتحاسب.

وضحك من نكتته في قهقهة عالية ختمت الحوار، ثم اهتمّ سعيد بالسائق ينتهره لشدّة اهتزاز السيارة على أرض كثيرة الحفر. وكالمعتذر خاطب ضيفه :

ـــ كلّما أصلحت هذه الطريق أفسدتها الجرارات وعجل الكراريط.

ـــ وهل بالممكن ترك الطريق لك وحدك لا يمرّ منها غير سيارتك وعجلاتك الرقيقة ؟

ـــ هل لديك فكرة عن تكلفة المتر الواحد من طريق معبّد؟

ـــ لا...

ـــ إذن فاسكت حتى تعرف. هذا النوع من الطرقات لا يتحمّل غير عجل المطاط ولا شيئ غيرها. ولكن دعنا من هذه المشاكل التي لا تفهمونها أنتم سكان المدن.

لم يعودوا الى التناقش إلا بعد وصولهم الضيعة، وتفرّج الزائر على محتوياتها، مثل حظائر الماشية ومخازن الحبوب وآلات الزرع والحصاد، ثم بانت في جانب محايد محاط بالشجر فيلا أنيقة ضخمة البنيان، شيّدت بأسلوب المستعمرين وأضيفت إليها تزاويق ومرافق محلية الطابع، ومع هذا فمن يدخلها يجزم أن سكانها الأوائل غادروا دون أن يأخذوا شيئا من رياشها وزينتها.

ـــ فأنت في مثل هذا النعيم والسائلون عنك في العاصمة قلقون يرددون : ترى ما به، وما لغيبته طالت ؟

ـــ أنا مشدود إلى هذا المكان شدّا.

ـــ طبعا... ولماذا تترك جنتك هذه لتذهب إلى ضوضائهم ؟

هكذا فتح الضيف الحوار وهو يترشف الشاي في شرفة القصر الصغير، فنظر إليه سعيد بطرف عينه وأجاب :

ـــ لا تترك لي الضيعة وقتا أنفقه في العاصمة أو غير العاصمة، ثم إنه لا فائدة في التنقّل فلديّ كل شيئ هنا، وما من وزير أو مسؤول يأتي الى هذه الناحية إلا ويزورني ويسألني عما أحتاجه وعما لديّ من مشاكل ليحلّها.

ـــ نعم يا سيدي... وجيه المنطقة وقائد العشيرة، فكيف لا؟

ـــ لا يتخذ الأمر شكلا رسميا، وإنما في النهاية لا قرار يخصّ الجهة إلاّ وأكون على علم به.

ـــ تريد القول إلا وتستشار فيه؟

ـــ تقريبا. ولكن هذا ليس حملا خفيفا، فهو مسؤولية تجبرني على متابعة كل الشؤون، ومسايرة الأحداث صغيرة كانت أم كبيرة.

ـــ تبثّ العيون هنا... تشتري الضمائر هناك... هل هذه طريقتك أم تدفع أجورًا لخبراء ومستشارين ؟

ـــ لا تبالغ، الأمور لا تسير بهذا الشكل. ففي الجهات البعيدة عن العواصم يحس الناس بحاجة بعضهم لبعض أكثر من ساكني المدينة، لذا يتفننون في تشبيك مصالحهم وربط قنوات المنافع المتبادلة، حتى يستحيل وجود من لا يحتاج الى الناس، ومن لا يحتاج الناس اليه.

ـــ في تصوّري أن احتياج الناس المتبادل اختياري في أغلبه، أما احتياجهم إليك فضروريّ على ما يبدو، ما دامت جميع القنوات تصبّ عندك.

ـــ قلت لك منذ البداية : لا تبالغ. أيكون هذا طبعا متأصّلا فيك أم ماذا؟ كل الدنيا تغيّرت إلا أنت فكما عهدتك.

ـــ العيب ليس مني وإنما من الدنيا التي لم تضع في طريقي ما يغيّرني.

ضحك الفلاح من ضيفه ودعاه إلى زيارة الأطراف البعيدة من الضيعة.

ما أسعدني بهذا الهواء النّقي المعطّر بروائح الشيح والعرعار والكليل والزعتر، هذا هواؤك يا أرض السباسب العريضة الممتدّة امتداد الرؤية. هذا عطرك المتوحّش أعرفه وأتذكّره أيتها السهول. شذّرك وفتّتك المستعمر الفرنسي. شتت قبائلك وعروشك ليبسط يده على أخصب ما فيك. وزّعك على المعمّرين من فرنسا ومن مهاجري الطليان والموالط والسبنيول، أتى بهم حفاة مفلسين، ودون أن يحتالوا أو يساوموا وفّرت لهم السفارة قوانين الانتزاع والإنزال وإحياء المهمل من الأراضي، وأعطتهم القروض لشراء الآلات... حتى أنني سمعت عن

حلاق فقير من جنوب فرنسا باع دكانه وأدوات حلاقته وأنشأ بثمنها ضيعة، صارت في ظرف قصير مملكة سحرية بزغت من ثنايا الأرض. هل قرأتهم في التاريخ أن حلاّقا أنجز معجزة كهذه ؟

وبالطبع أثمرت كل تلك التسهيلات والامتيازات ضيعات ومزارع كبيرة مزدهرة، يديرها أباطرة شامخو الأنوف، لا يأبهون بالسكان ولا بالحكّام، وصارت لهم أجهزة خاصة تدافع عنهم في الصحافة والحكومة. وعندما قامت معركة الاستقلال تسلّحوا وضربوا من يقترب من أراضيهم. ومع ذلك نالهم القتل والتخويف، فصمدوا بعض الوقت، ثم يئسوا من عودة الطمأنينة، ففروا بجلودهم غداة إعلان الاستقلال، تاركين أملاكهم كما هي، وبعضهم لم يأخذ غير الثوب الذي يلبسه.

لبعض الوقت تركت أملاك المعمرين بلا رعاية، وتشرّد عمال نشأوا فيها وعاشوا منها ولا يعرفون مصدر رزق غيرها، لذا وضعت عليها الحكومة يدها، ثم أوكلت بعضها للمقاومين والمناضلين ليديروها ويشغّلوا عمالها في انتظار الحلول النهائية.

هل هذا كل ما حدث لك أيتها الأرض ؟ حدثيني يا أرض السباسب، يا سهول القطار وقمّوده وسيدي بوزيد، هل أنت أسعد حالا الآن ؟ ألم يجفّ نبعك وينضب ضرعك ؟ هل ترك المستعمرون فضلة من خيراتك بعد أن حرثوا المسطّح، ونبشوا عما في الأعماق ؟ خيرك عميم لا ينقطع مهما سلبوا. فاملئي رئتيّ، أنا المغترب البعيد عنك، املئيهما بهوائك المعطّر ثانية وثالثة يا أرض بلدي.

ـــ مالي أراك سرحت بأفكارك ؟ هل أطلقتها في البراح العريض فركضت هاربة منك كالطفل المنفلت من رقابة أبيه ؟

ـــ كنت أناجي هذه البرية وأملأ صدري بأنفاسها .

ـــ هل بادلتك المناجاة؟ هل حدثتك بشيء ؟

ـــ جلال الأرض في صمتها، تضع وتبتلع، تأخذ وتعطي دون أن تفوه بكلمة... لا تؤمن بغير الفعل ولا شيء غيره.

كان سعيد وضيفه يركبان جرّارا هذه المرة لصعوبة المسالك الذاهبة إلى أطراف الضيعة. هناك صفوف من النسوة تتقدم بين الزرع للتنقية، وهناك رجل مشرف عليهن جاء من بعيد يجري مرحّبا بالقادمين، ومستعدا لتقديم تقرير مفصّل عن سير العمل، عن البنت الشقية التي غابت في ذلك اليوم، وعن الأخرى اللعينة التي تمردت ولم تصغ الى وصاياه. كل هذا وسعيد واقف يستمع على ظهر الجرار، كأنه موسوليني على ظهر دبابة.

ـــ ولماذا استخدام النساء في تلك الأعمال القاسية ؟ أما زالت هذه العادة باقية مستمرة ؟

هكذا امتعض الضيف أمام صاحب المزرعة، فردّ عليه :

ـــ لأن الرجال يستنكفون منها، ويختارون شرب الشاي ولعب الورق. الفلاحة عندهم حرث ليس إلاّ .

ـــ وهل تسكت وترضى ؟ من سيربّي الأطفال ؟ من سيعتني بالبيت إذا انهدّت طاقة المرأة في هذه الأعمال ؟

ـــ أنت تحلم... وهل تظن أنه توجد تربية أطفال أو عناية بالبيت ؟

ـــ على هذا أنت تدير زريبة حيوانات لا ضيعة فلاحية... أعتذر عن عبارتي، ولكن هذا هو إحساسي الحقيقي. إذا أنت اعتنيت بتنقية الزرع من طفيلياته وتركت هذه الطبائع الهمجية، والأفكار والسلوكيات

البدائية معششة في رؤوس عمّالك، فليس لي من وصف أطلقه على مزرعتك غير الذي سمعته.

ـــ أنت لا تعرف أولئك الناس، ولذا دعك من التكلم باسمهم.

ـــ ما بك تتكلم وكأنك لست واحدا منهم ؟

ـــ ولا أنت منهم أيضا.

ـــ هذه لغة المعمّرين... كأني بهم غادروا المكان دون أن يأخذوا معهم أفكارهم وممارساتهم.

ـــ لو كنت مكاني لرأيت العجب، ولاحترت فيم تفعل لتقويم المعوجّ وإصلاح الفاسد. هل أنا خالق هذا الكون حتى أسأل عن جهل الجاهلين وعما يصيبهم من جراء عماهم ؟

تحرّك الجرّار مبتعدا عن العمال فتجرّأ الضيف على إبداء رأي طرأ له أثناء الحوار :

ـــ أتذكّر الآن أن رجالا طيّبين، وليسوا أحبّ للخير منك، نصحوا الصادق باي أن لا يأذن لخير الدين باشا في إنشاء المدرسة الصادقية، مخافة أن يخرج منها من يهدّد سلطته ويفتكّ الحكم من أسرته، ومن رأيي أنك غير بعيد عن أفكارهم، ولربّما أعجبت بهذه النصيحة فقلت لنفسك : دع الأعمى في عماه، حتى لا ينظر لما بين يديّ ويراه.

ـــ لا فضّ فوك ولا عاش من يشنوك... هذه واحدة من خطب أيام زمان ذكّرتني بها حيّاك اللّه. دعك من ذاك التشدق اللفظي، وانظر بعين الرحمة الى ما أعانيه من القوم المحيطين بي، والفاتحين أفواههم للأكل لا يطلبون شيئا غيره. أما فتح الذهن وتوسيع الفكر فلم يسمعوا به ولا هم يطالبون به، لأنه لا ينفعهم ولا يملأ بطونهم. وإن شئت الحق فهذا رأيي أنا أيضا.

لم يردّ الضيف بكلمة، بل سرحت عيناه في الملكوت الممتدّ يمينا وشمالا، حقولا خضراء يانعة تتماوج مع الريح. وحدّث نفسه : « أيمكن إنتاج خير عميم كهذا بأيد وأصابع لا يحركها فكر أو وجدان ؟ ».

اعترضتهم سيارة حرس في أحد المفترقات، فلما عرفوا صاحب الجرّار نزلوا ليحيوه بحرارة، ويسألوه عن الصحة والأحوال، ولكنه عوض ردّ التحية بأحسن منها أبدى لهم غضبه من تغافلهم، وإغماض عيونهم عن دوابّ الجيران، يهملها أصحابها فترتع حيث تشاء في أرضه، وتتلف من الزرع ما تتلف.

ـــ لا أدري ما فائدة وقوفكم هنا والدواب هائمة كما تريد وتشتهي، لا من يحرسها ولا من يردعها، تدخل دون استئذان، وتلتهم منتوجي وثمرة جهد البشر العائشين في حماي ؟

ودون انتظار لردّ الحارس الذي بدا مرتبكا أضاف :

ـــ تحرّكوا يا هؤلاء، فالدولة تأخذ منا الضريبة لتدفع أجوركم، فلا أقل من حماية أرزاق الناس عوض الوقوف في الطريق للفرجة على الرائح والغادي. تحرّك يا سوّاق... امش.

ودفر بجمع يده كتف السائق فأسرع بالتحرك قبل أن تناله ضربة أخرى، ودفع المحرك بقوة جعلت الجرّار يهتزّ فوق تلوم الحرث، فاستحقّ بذلك شتيمة إضافية.

في طريق عودته من الجنوب توقّف عامر في الساحل لزيارة مروان، وبعد سويعات من وصوله طرق شرطي باب غرفة الفندق. فتح عامر ليرى من الطارق. تعجّب أولا ثم انقلب تعجّبه إلى حيرة. هل أخطأ الشرطي العنوان ؟ لا... والدليل أن خادم الفندق واقف بصحبته. ثم ها هو يشير بيده الى الضيف وينطق باسمه كاملا غير محرَّف. بعد أن حيّا العون أعلم الزائر أن السيد والي الجهة يطلب حضوره، وأنه سينتظر في قاعة الاستقبال إلى أن يجهّز نفسه.

أغلق عامر باب غرفته محتارا وقد أهاجت هذه الزيارة في ذهنه خواطر كثيرة :

ما بال الأحداث تستبق خطاي ؟ هل أنا الذي أصنعها أم هي التي تصنعني ؟ جئت هذه المدينة الساحلية عشيّة، ونزلت هذا الفندق دون إعلام أحد بوجودي... فماذا حدث ؟

كنت أنوي زيارة الوالي في صباح الغد، بل هذا هو الغرض من مجيئي إلى هنا، وكنت أريدها مفاجأة تدخل السرور على كلينا، وتذكّرنا بأيام الشباب والدراسة، خاصة وقد امتدت غيبتي في الخارج وطالت.

نعم أحببت رؤيته وقد غدا مسؤولا كبيرا، ذائع الصّيت عالي القدر، حتى تنبّأ الناس له بالوزارة في أجل قريب. لكن ها هو الرجل قد علم بوصولي وبمكان نزولي قبل أن أجد الوقت لأتصل به هاتفيا. لا... ليس هذا دليلا على النشاط والهمة فقط، بل دليلا على أن للرجل عيونا ساهرة راصدة، وأن الدهاء الذي عرفته فيه سابقا قد وجد كل الظروف الملائمة ليزداد اتّقادا ومضاء.

أتذكّر نظافة هندامه وتأنّقه في اللباس حتى ليغطّي هذا قصر قامته ... وأتذكّر تندّرنا بلهجة أهل نابل في حديثه وهو يدغم التاء في الشين، فيزدحم الاثنان في مقدمة فمه إذا عجّل الكلام.

كان والده تاجرا ميسورا فلم يبخل عليه بألبسة فاخرة تثير حسدنا، لكن جيوبه الممتلئة وسخاءه التلقائي يجعلنا نرضى عنه مهما أغضبنا، بل ونحبه بإخلاص.

وأتذكر كم كان ولعه بابنة عمه واشتياقه الى رؤيتها مرة في الشهر على الأقل دون تخلف، فيحج الى مدينته ويعود منها، بعد إقامة ليلة أو ليلتين، وهو أشد ما يكون صبابة. وكان الأصدقاء يسألونه عن حالها كأنها بعض معارفهم، فيغمض عينيه ويرفع عقيرته بالغناء متمايلا بجسمه رافعا يديه إلى أعلى :

دوّر... دوّر
خبز السميد، وكعك محوّر
خرجت م الحمّام تفوّر
شدّوني لا نطيح لتالي

وكان الجميع يعرفون من أوصاف ابنة العم أنها بيضاء موردّة، فيفهمون مقاصد الأغنية، ويشاركون العاشق الغناء والتصفيق، طربين لطربه مبتهجين لابتهاجه :

آمان آمان يا الماني
سافر عليّ وخلاني
خلاني في الغربة نعاني
ولا يعرف ما صار عليّ

ابتسم عامر وهو يلبس قميصا نظيفا، وتساءل إذا ما بقيت تلك المعشوقة على نضارتها، « خبز سميد وكعك محوّر »، وإذا ما بقي العاشق متيّما صريع الهوى كما كان، بل عساهما قد تزوّجا وأضافا إلى سكان الوطن القبلي أطفالا بيضا موردّين. وفكّر أنه لا بدّ من السؤال عما آل اليه أمر ذلك الحب الملتهب.

زادت الابتسامة اتساعا وقد بدأ يتراجع عن الفكرة ويقول لنفسه : « هل من المعقول أن يسأل السيد الوالي إذا كان مواظبا على حبّه لابنة عمّه ؟... عيب ! ».

وجد الشرطيّ ينتظره ومعه سيارة حكومية قادتهما الى مقر الولاية. عند الباب الفخم تقدم حاجب الاستقبال وكأنه كان في انتظارهما. انفتح أخيرا باب المكتب الواسع، وظهر في الصدارة رجل عريض الكتفين، عليه هيبة ووقار وغطى بعض الشيب عارضيه. حيّا الشرطي رئيسه بطريقة عسكرية ثم انسحب موصدا الباب خلفه. عمّ السكون المكان لحظة، فقال الرجل الجالس وراء المكتب :

ـــ ألم تأت لتراني وتطمئنّ على أحوالي ؟ لماذا لا تسلم عليّ، مالك واقف مكانك ؟

ـــ أنتظر أوامر الحكومة...

قام الوالي من كرسيه مبتسما للضيف، أراد هذا معانقته، ولكن بقاء المسؤول الكبير واقفا كالعصا المستقيمة، وإمساكه بذراعي عامر في حركة مصافحة حارّة، لم تساعده على الانحناء، وتنفيذ العناق الأخوي الذي أراده.

حضرت القهوة في الحال ساخنة طيبة النكهة. ترشّف الضيف قليلا ثم سأل صاحبه :

ـــ لماذا أتيت بي كالمقبوض عليهم ؟

ـــ أردت إطلاعك على طريقتي في إدارة الشؤون هنا... ألا تريد الاطمئنان بأن بلادك تدار بشكل جيد ؟

ـــ الإدارة بشكل جيّد تعني أمورا كثيرة، من بينها تقصّي دبيب النمل... مثلا.

ـــ ومعرفة من يدخل المدينة ومن يخرج منها.

ـــ وهكذا علمت بمجيئي ؟

ـــ لو كنت مكاني لأدركت أن تقصّي دبيب النمل كما تقول أمر أساسي، وإلا أفلت منك كل عنان.

ـــ كانت العملية مدهشة كما في الأفلام البوليسية... استغربت حصولها. ومع ذلك أهنئك على هذا الحزم.

ـــ لا بد أنك جئت لزيارتي، لا لشيء آخر. هذا ما اعتقدته على الأقل، لذا اختصرت الوقت واستقبلتك للترحيب بقدومك. أما فيما بعد فسيصحبك معتمد المدينة لتتفرّج على ما أنجزناه في هذه المدة القصيرة، وهو أمر ليس بالهيّن أو القليل. ثم سينقلك من الفندق للإقامة في مسكن على الشاطئ مخصّص للضيوف الجديرين بالإكرام. سنتفرج الليلة على مسرحية تقدمها فرقة جهوية نحرص على تشجيعها، ثمّ نتحدّث قليلا بعد ذلك. هل ما زلت تحبّ السهر ؟

ولم ينتظر الجواب لأنه وقف فجأة ونظر في ساعته، ثم دقّ الجرس فانفتح الباب ودخل الحاجب، كل ذلك تمّ بحركة واحدة لم يتابعها الضيف بنفس سرعة حدوثها. نطق بكلمة «السيارة» فخرج الحاجب جريا، وفي نفس اللحظة أمسكت يد الوالي سماعة الهاتف ليوصي المعتمد بما يفعله.

في اليوم الموالي تجوّل الضيف بين معالم المدينة العريقة. لاحظ كم تغيّرت منذ آخر عهده بها، وبدت له أكثر سكانا وأوفر نشاطا. وفي الأثناء كانت تأتيه شروح وتوضيحات مدعّمة بالأرقام وتواريخ الإنشاء ومواعيد التدشين والافتتاح، مع أسماء الشخصيات الوزارية أو الحزبية التي أشرفت على كلّ حدث، يلقيها عليه موظف سام رافقه وتصرّف معه بكثير من الأدب واللياقة منذ بداية الرحلة.

هل هذه أعمال صاحبي ذاك الذي يدغم الشين في كل تاء تعترضه ؟ أين هي لهجته القديمة ؟ صحيح أنها غابت من لسانه رغم عدم انتباهي عند التقائنا في المكتب... لقد رأيت آنئذ شخصا آخر غير الذي أعرفه قديما، وغير الذي استمعت إليه يعدّد خصال حبيبته ويطري جمالها مغنيا : دوّر دوّر. كان مهيبا، نعم. لكن

قاسي الملامح، ينطق الكلام بسرعة دون استعمال يديه أو تحريك عضلات وجهه.

وكانت غرفة المكتب هادئة، يسقط النور الكهربائي من سقفها في دوائر موزعة توزيعا محكما على المكان. فلا تضيء إلا ما به الحاجة والقصد، مع ترك أركان شبه معتمة كأنما للاحتفاظ ببعض الغموض في تلك الأرجاء. المكان فسيح لكنه غير مثقل بالأثاث، وإنما هي قطع ثمينة في غير كثرة، موزعة بإحكام كما في الأماكن الرامزة الى السلطة : توحي بالوقار، وتضغط عليك ضغطا خفيفا، لتدخل في نفسك الهيبة لا الرهبة.

تنبّه فجأة عندما دعاه مرافقه الى النزول من السيارة. دخل معه الفيلا الجميلة المحاطة بالشجر والخضرة. تسلّم أحد الخدم الحقيبة من السيارة. فيما خاطبه المرافق مرحّبا :

ـــ السيد الوالي حريص أن تستمتع بإقامتك عندنا. لذا فكل خدم البيت وأعوانه رهن إشارتك، وإذا أردت تكليفي بقضاء أي شأن فهذا يشرفني ويسعدني.

أشار المرافق الى الهاتف وطلب من الضيف أن يكلمه في أي وقت يناسبه دونما حرج . ابتسم عامر دون أن يقول شيئا، وفي نفس الوقت أخذ يطوف بعينيه في أرجاء المكان، محاولا التعرّف على أجزائه من ناحية وعلى وظائفه من ناحية أخرى. كان بيتا أنيقا حسن الترتيب، يشي أثاثه وهندسته بأنه من مخلّفات أحد المعمّرين الأثرياء، وهم قد اشتهروا بتنافسهم في تشييد أفضل المباني وتعميرها بأفخر الأثاث، مغتنمين ثراءهم الفاحش وأموالا طائلة درّتها عليهم الضّيعات الخصبة والوظائف السامية.

قضى ليلتين في بيت الضيافة، مقسّما وقته بين المطالعة والاسترخاء قرب حمام السباحة، أو التجول في المدينة. وفي اليوم الثالث لاحظ حركة بين الخدم، على غير ما ألفه منهم، ولما سأل أحدهم أجابه :

ـــ علمنا أن السيد الوالي سيتعشى عندنا الليلة.

ـــ هل دعا ضيوفا ؟

ـــ لا... عشاء لشخصين فقط : أنت وهو.

ـــ هل من العادة أن يزوركم باستمرار ؟

ـــ أحيانا عندما يكون عندنا ضيف هام، أو عندما يكون أهله في سفر.

وتساءل الضيف في سره : « تذّكر زيارتي في اليوم الثالث على طريقة العرب القدامى، يتركون للضيف أياما للراحة والتخلص من وعثاء السفر قبل السؤال عن حاجته...». ابتسم من خاطرته ومن عبارة «العرب القدامى »، وهل يصحّ إثبات علاقة بين أحد أولئك القدامى... كالحجّاج بن يوسف، أو عمر و بن العاص مثلا، وبين هذا الوالي الجديد المجدّد ؟

بعد عشاء دسم حضر فيه كل ما لذّ وطاب، جلس المضيّف وضيفه في الصالون يدخّنان السيجار الغليظ، ويملآن فضاء الغرفة سحابا رماديا ذا نكهة محبّبة للرجال، وللعظماء منهم بالخصوص، إذ هي تعطيهم إحساسا خفيفا بالحميمية، وبأن الجوّ سانح لخوض المناقشات الهامة.

تأمل عامر السيجار بين أصابعه وتخيّل نفسه يدخّن في حضرة أحد الولاة « القدامى » فأشرق وجهه ابتهاجا بالصورة التي استحضرها خياله. سأله مروان :

ـــ هل أعجبك السيجار ؟

ـــ لذيذ ورفيع المستوى، أشكرك على هذه المتعة الإضافية بعد كرم الوفادة وطيب الإقامة.

ـــ أنا ألتذّ بإكرام ضيوفي، وأنت من أعزّهم.

ـــ بدأت أشعر أنني كذلك.

ـــ هل جلت في أنحاء البلاد كلها، أم قصدت زيارتي أنا بالخصوص ؟

ـــ جئت لرؤيتك أنت بصفة خاصة، وأحببت دخول المكتب عليك بصورة فجئية، فحرمتني من هذه اللذة.

ـــ الأصحّ أنني وفرت عليك الوقت، وأشعرتك أنني بدوري أنتظر زيارتك.

سأل السيد الوالي ضيفه إن كان تجوّل في المدينة ولاحظ عليها التغيّر والتطوّر، وبدون أن ينتظر جوابهُ شرع يشرح له جغرافية المنطقة ومواردها الطبيعية والبشرية، وما أنجزه فيها خلال سنوات ولايته الخمس، مع تفصيل وإسهاب عند ذكر العراقيل والصعوبات.

ـــ ... لكنني عرفت بالتجربة أن لاشيء يلين عريكة الناس ويسلس لك قيادهم مثل الترغيب والترهيب : اشكر من أحسن، وعاقب من أساء، وليكن الكيل وافرا في الحالتين. مثلا... لقد أعنت مئات الطموحين ووفرت لهم سبل الصعود والنجاح، كما سجنت وأبعدت عشرات المفسدين والمتقاعسين، حتى صار كل من يدخل هذه الولاية ويريد التعامل معي يعرف القاعدة مسبقا. وقد شجعتني الدولة على هذه السياسة وصارت تضرب بها المثل.

ـــ سمعت أنّك سجنت بعض الناس دون محاكمة.

ـــ ألم تسمع أيضا بأنني أعطيت لآخرين منحا ليتعلموا في الخارج، وأنني أرسلت أفواجا من العاطلين الى المصانع الألمانية، وأنني جلبت رؤوس أموال لبعث مشاريع ما كان لها أن ترى النور... كل

ذلك بوسائل وإمكانيات محلية صرف. اسأل من حدّثك عن المساجين إن كان قد سمع بالإنجازات أيضا، أم إن ألسنة السوء لا تقدر على إيراد الحقيقة كاملة ؟

ـــ يقولون إنك شديد صعب المراس.

ـــ صعب على الكافرين بالنعمة.

ـــ ويقولون أن خيرك أقلّ من شرّك، وأنه لا يصيب في الغالب سوى المقرّبين منك.

لاحظ الضيف أن الموظف الكبير ضغط على سيجاره في المطفأة بعصبية، ثم ألقى رأسه الى الخلف وهو ينفث ما بقي في صدره من الدخان بقوّة.

ـــ المعذرة إن كان كلامي قد أزعجك... لم يكن هذا قصدي، وإنما أحببت معرفة رأيك فيما تلوكه الألسنة.

ـــ لا تلوك الألسنة إلا نصف الحقيقة، ولا يمضغ الناس إلاّ سيرة من يتحرك، ومن يعمل.

ـــ إن كنت مقتنعا بما تفعل فلا يهمك قول الناس.

ـــ دعنا من كل ذلك... ولنغيّر الموضوع.

ـــ كيف حال ابنة عمك... هل تزوّجتها ؟

ـــ هل هذا هو التغيير الذي يروق لك ؟ لا... لم أتزوّج ابنة عمي.

- بدّلت رأيك بعد الحبّ الذي كان ؟

ـــ زوّجوها وأنا في السجن.

أنا مرتبك ونادم على السؤال. فوجه الرجل تغيّر، غطته سحابة حزن، لم تخف عني رغم تظاهر الوالي الوقور باللامبالاة، كأن الأمر لا يعنيه. لا بد أنني نكأت جرحا قديما دونما قصد، أحببت أن أعتذر لكنني فضلت

Scanned by CamScanner

السكوت، آملا أن يطلعني على تفاصيل ما حدث، وعلى حقيقة مشاعره.

من كان يظن أن ذلك الشاب المنطلق الأسارير سيغدو كهلا متجهّما، متكتّما على عواطفه فلا يظهر منها أثر على وجهه؟ من كان يظن ذلك الطالب المغرم بدروس الهندسة والجبر وملجأ زملائه لحل المشاكل الحسابية سيحوّل اهتمامه كليا الى حلّ المشاكل الإدارية وخوض المعارك السياسية مع ما تتطلبه من دهاء وكياسة ؟ من تخيّل يوما أن ذلك العاشق المتيّم بابنة عمّه سيذكرها يوما فلا يرفّ له جفن ولا تخرج من صدره آهة، حتى وإن تصوّرها في بيت رجل آخر؟ هل أرضخته تصاريف القدر إلى أحكامها فرضي واستكان ؟

فتح عينيه في وجهي، وقد أدرك أسباب صمتي، ثم باغتني بالسؤال كأنما قرأ أفكاري :

ـــ فهل تريد مني السّهر تحت نافذتها أغني وأشكو لوعتي باكيا مستعطفا... أم أن أنبطح أرضا لتدوسني سيارة وأنهي حياتي شهيد الغرام ؟

ـــ خسارة ! لقد جعلتنا شهودا على حبّ قويّ شهيّ دافق بالحياة.. فأين هو اليوم ؟

ـــ النسيان أعظم النعم، لكن الناس يهملونه ويختارون عليه عذاب الذكرى، وماهي إلاّ قيود تشد إلى الوراء وتمنع الانطلاق إلى المستقبل وما فيه من مفاجآت، قد تكون أجمل وأبهى ألف مرّة مما نتركه خلف الظهور. أم أنت من أنصار : « قِفَا نَبْكِ من ذكرى حبيب ومنزل » ؟

نعم إنه منطلق الآن، لا تكبّله أية ذكرى أو عاطفة أو ولاء، كل ما في حديثه يوحي بثقته في نفسه وامتلاكه

لجميع قواه الشعورية، مضاف إليها ما وفرته له السلطة من قواعد مادية وسياسية.

حتى أيام السجن والتعذيب تجاوز تفاصيلها، واستعاض عن جزئياتها بالتركيز فقط على استخلاص العِبَر والأفكار، وما ترسّب في الذات من أحاسيس ومشاعر خلفتها تلك الظروف غير العادية.

ـــ عندما وجدت نفسي ملقى في السجن بتهمة مفتعلة وذنب ملفّق، ورأيت نفسي كالخرقة الممزقة في أيدي زبانية تملك بحركة أن تهبك حق الحياة أو أن تحرمك منه، أحسست أن كل القوى الظاهرة والخفية قد تخلت عني، وأن عليّ تدبّر مصيري بأسلحة ذاتية، أبتدعها قيد اللحظة، لمجابهة كل ظرف بحسب خصوصياته وأخطاره... إنها تجربة فريدة ولذيذة، ياليتك جرّبتها معنا.

لو بقي فيه شيء من تلك الروح الفكهة القديمة لشبعنا ضحكا من هذه النكتة السوداء، ولكنّ تجهّم سحنة الوالي وجدّيّة لهجته أدخلت الحديث في قالب لا يشوبه الهزل. نعم كدت أدخل الشَّرك مثله يوم حاصرت الشرطة باب الأقواس، وطاردت الفتية في الشوارع المجاورة، ولو لم أهرب إلى دكان منصور في تلك العشية لوقعت وقعته، ولأحسست بمثل أحاسيسه اليوم. هي مصائر تختلف حسب ظروف لا يعلم أحد سرّ حركتها ولا كيف توجّه.

تجاوزت سيارة الأجرة ضواحي مدينة لم تستفق بعد من النوم، ثم راحت تعدو بين أشجار الزيتون في طريق تصعد باستقامة نحو

العاصمة. أما الركاب فاستسلموا بين صحو وغفوة لهدهدة المحرّك الرتيبة، ماعدا هذا الجالس في المقعد الأمامي وقد سمّر عينيه في لوح الزجاج، وفي صفوف الشجر خلفها تمرّ جارية إلى غير هدف. كان يحدّق فيها دون انتباه، فأفكاره تهوّم بعيدا، مقلّبة أحداث أيامه في ضيافة والي جهة هو يغادرها الآن، وفي نفسه تعتمل أحاسيس وأسئلة عديدة.

من ذلك مثلا : « هل هذا هو مروان العاشق السعيد المرح ؟ » ومنها : « هل خسر ذاته عندما ضاع منه حبّه ؟ أم إن ذلك ليس شيئا مذكورًا أمام السجن ومصائب التعذيب ؟ »

اختصر عامر الردّ على كل هذه الأسئلة في جواب واحد : « ومع ذلك، فمهما خسر من وقت، ومهما كانت قوّة حبّه لابنة عمّه، ومهما ذاق من آلام... فالدنيا تعوّضه الآن على ما فاته بالأمس، حتى أنها أنسته حبّه التليد، وتكفّلت بتضميد جراحه وتأمين السعادة لأيامه المقبلة... هكذا الأيام تأخذ بقدر ما تعطي ».

ولقد سأل الوالي ضيفه في سهرتهما عن حياة الغربة، متعجبا منه كيف استطابها... وعما هو صانع أو سيصنع في بلاد المشرق؟ وربما اتخذ الحديث أحيانا شكل اللّوم :

ـــ الغربة عندي هي الغربة... اجتثاث وانبتات، سواء كان في مشرق أو مغرب لا فرق عندي. لا أتصوّر امرؤا عاقلا يقدر على هجران أهله يوم تكون حاجتهم إليه أشدّ وأوكد.

ـــ لم أذهب للسياحة يا مروان.

ـــ أعرف ذلك.. لكن الدراسة انتهت منذ سبع سنوات، ألا يسمّى ما تقوم به سياحة ؟

ـــ عن أي سياحة تتحدث يا رجل ؟

ـــ بقيت غائبا عن رضى واختيار. لم يجبرك أحد.

نظر إليه الضيف نظرة ذات معنى فاستدرك :

ـــ أقصد لم يمنعك أحد من العودة، ربما تحدث بعض المشاكل عند دخول الحدود، لكنها أمور عارضة.

ـــ وربما حُجز منك جواز سفرك، وربّما احُتجزت أنت بالذّات، وربّما...

ـــ هذا يحدث للتأكد من الحالة القانونية لبعض الأشخاص، ولكن ليس من خطر يهدد حياتك أو حريتك أنت بالذّات.

ـــ وكان فضل اللّه عليكم عظيما.

ـــ أعرف ميلك للهزل، ولكنك لو قارنت حال الحريات الفردية عندنا بحالها عند غيرنا لهالك الفرق.

ـــ أنا طموح بطبعي، لذايهولني الفرق كما قلتَ عندما أقارن أمري بمن هو دوني. ولكنني أحزن عندما أقارنه بمن سبقني وفاقني أشواطا. ومهما كان الأمر فهل ترك غيابي فراغا كبيرا ؟ هل رأيت من أحسّ به غير أهلي وأسرتي ؟

ـــ أنا وبعض الأصدقاء طالما تساءلنا...

ـــ تساءلتم عن ماذا ؟

ـــ هناك حيرة، كنا نضع أسئلة كثيرة عن حال طلبة خرجوا للدراسة ولم يعودوا. حدّثني ماذا تفعلون هناك، ما الذي يشدّكم فلا تعودون إلى أحضان بلدكم المحتاج إلى أفكاركم وسواعدكم؟

ـــ قابلت كثيرين ممن عادوا فلم يحدّثوني عن لوعة الوطن لفراق أبنائه أو شوقه لرؤيتهم، وإنما عن إيقافات واستجوابات وحجز جوازات، وهذا في رأيي ليس من الترحيب في شيء. لا يظهر أن البلد محتاج إلى أفكارنا وسواعدنا كما تقول.

ـــ وأنا حدثتك عن التحريات القانونية، وهي إجراءات احتياطية بسيطة لا بد منها. اسمع مني ولا تبالغ كعادتك، إن الأنباء ترد من

الشرق يوميا منذرة بالشرّ، لا شيء مما ننجزه يعجب القوم هناك، رغم أننا لم نطلب غير المهادنة وتركنا وشأننا. ما طلبنا من دول المشرق عونا أو مساعدة، ومع ذلك فهم مع كل منشقّ علينا أو ناقد شاتم لنظامنا، ووصل الأمر ببعضهم إلى تنظيم مظاهرات احتجاج ودعوة إلى العصيان. أتعرف من قاد تلك المظاهرات ؟... قادها أبناء بلدنا ممن ألجأتهم الحاجة وصنوف الابتزاز إلى عرض خدماتهم على طوائف وأحزاب يجهلون أهدافها ومراميها. توجد يا سيدي معسكرات تدريب قرب حدودنا تهيء شبابا غاضبا أو عاطلا أو مطرودا أو فارّا من سجن، لينقضّ على وطن ربّاه ورعاه فيغرقه في الدماء والدموع.

ـــ تدعوني كي لا أبالغ، وفي نفس الوقت توزع النعوت القاسية بلا حساب. إذا اغتنم أولئك الناس وجود الشباب الغاضب، فلماذا يوجد شباب غاضب أصلا ؟ لماذا العاطلون ؟ لماذا نطرد أبناءنا عوض أن نصلح أمرهم ونعطيهم عملا وأملا ؟ إن الأم إذا طردت أولادها ورمتهم إلى الشارع تدلهم على مسالك الجريمة، ولن تجني منهم غير الكراهية والحقد... وربّما كانت هي أولى ضحاياهم... هكذا هي عواطف البشر في حالتها الصّرف : العقوق يقابل بعقوق، إذا لم يوجد برّ حتى يقابله البرّ.

ليلة وصول عامر الى العاصمة ذهب ليبيت عند ابن عمه، وجاء حديث زيارته لمروان وتفاصيلها، فلم يقطع صاحب البيت الحديث بأي اعتراض أو تعليق رغم المسائل المثيرة للجدل، وإنما يجيبه من حين لآخر عندما يسأله عن رأيه :

ـــ ألست ستقضي الليلة عندنا ؟ دعني أفهم الحديث جيدا ثم أعطيك رأيي.

ولم يسمع رأيه في النهاية إلا وهما في الطريق إلى الفراش، إذ استوقفه في وسط الغرفة وقال :

ـــ أنت محظوظ إذ اقتبلك الرجل ذلك القبول الحسن وأكرم وفادتك، أما المعروف عنه فهو التنكر لكل معارفه القدامى والجدد، بل وحتى لبعض أهله وأقاربه. وحدثتني عن تناقشكما بأريحية وسعة صدر على ما فهمت، وهذا عكس ما نسمعه عن عدم احتماله لرأي يخالف رأيه. أما النقد فلا يجيب عليه بغير الرد القاسي وربما العقاب. كان يقمع الإضرابات بشدة، وكم زجّ بأعضاء النقابات في السجن، وكثيرا ما أرسلت دوائر الحكومة إلى منطقته الموظفين المشاكسين ليؤدّبهم ويردعهم، وهذا ما شجعه على أن يسجن بدون محاكمات، وأن يتجاوز القانون فلا تعترض عليه الحكومة، وبهذا اشتهر أنه ابنها المدلل.

لا أريد إجراء تحليل نفسي للرجل، ولكنني أظنه عانى بعد مغادرته السجن معاملة تهميش ولا مبالاة من كبار الحزب وأقطابه، خصوصا أن لا أحد من جهته ساندَه أو رشحه للمناصب الكبيرة، كما جرت العادة في توزيع المناصب الهامة على المقربين وأبناء الجهة. وأتذكر رسالة وصلتني منه في تلك الظروف سأطلعك عليها في الغد، لتفهم منها أسباب ردود فعله، ودواعي سلوكه وتصرفاته الآن.

وهما على مائدة الإفطار صباح يوم الغد ناوله ابن عمه الرسالة فقرأ فيها :

« أيها الصديق العزيز

راسلتني تسأل عن حالي لأنني غائب عن العاصمة من فترة طويلة، فبم عساني أخبرك وعمّ عساني أسكت ؟ كل ما أشعر به الآن هو الضياع والتردد في أخذ أي قرار. إني حائر من أمر نفسي النافرة الحرون، لا يرضيها اختيار مسار محدّد واضح في خضم الأحداث

الجارية والغليان المتواصل الذي تعيشه بلادنا اليوم. أرى نفسي محشورا في دوامات لم أستعدّ لها، خصوصا بعد فترة الركود والخمود في السجن. لا أجد تفسيرا إلى اليوم كيف يفلت مني زمام مصيري فلا أتحكم فيه ولا أوجّهه الوجهة التي أرضاها، إذ تتدخل دوما أصابع خفية لتضعني في مواقف وحالات ما خططت لها ولا قرأت لها حسابا. كل ما تداركته من أمري هو سنوات الدراسة، وقد استرجعت بها ما ضاع مني، واستعدت معنوياتي وثقتي بنفسي، بعد أن أوشكت في بعض الأوقات على النزول إلى درجة الأمية أو ما دونها، وفقدت شهية القراءة وطلب المعرفة، بعد ما علمت من نهمي القديم على التحصيل والطلب... ثم لما انتهيت من ذلك وجدت الركب تجاوزني بكل المعاني المادية والمعنوية، فزهدت نفسي دخول الوظائف، والإسهام في المناظرات أو المسابقات، للتحصيل في النهاية على مرتّب ضئيل بسيط القيمة تستعين به على الحياة الصعبة. وهل حياة كهذه جديرة بأن تعاش ؟

أمسك الوالد يوما بمعصمي ووضع في كفّي مفاتيح خزانته، ودعاني إلى الاهتمام بالفلاحة كما فعل هو وأجداده من قبله، ولكن من أين لي صبرهم وجلدهم ورضاهم بالقليل مرّة وبالأقل مرّات ؟ إنه نمط عيش لم أعتده ولا قدرة لي عليه. سكّتي مغايرة تمامًا. إن لم تهتد بصيرتي إليها بعد، فلعلني سأجدها أو ستجدني في القريب.

ولقد وقعت في عصبة ضالة مضلّة، شاكّة مشككة، لا دأب لها من صباح اليوم إلى مسائه غير الولوغ في أعراض الناس وذكر مساويهم، وحبك الدسائس والمناورات، محيطة نفسها بجوّ من الشك والتوجس، حتى ليصبح المقبل على عمل تطوّعي زاهدا فيه، متحسّبا من كل خطوة يخطوها، مخافة أن يتهم بالتزلف أو الوشاية، أو خدمة أغراضه الشخصية. وكم من معركة خضتها في هذا الجو الموبوء

وخرجت مهزوما، لأنني ناقص خبرة وتجارب بحكم السن، لا أبرع في لعبة التآمر والخداع، بل أنصرف غالبا إلى حديث الجدّ والصرامة دون مقدمات، تاركا لغيري وضع أقنعة النفاق والرياء.

رشحني بعضهم مرّة بعد مرّة لمناصب صغيرة لا طائل من ورائها، ورغم رضاي بهذا الأمر البسيط، وإذا بالذين رشحوني هم الذين هزموني وقدموا غيري سرّا، ادّعوا الدفاع عني وأعلوا في نفس الوقت شأن من نافسني، فلعل مصلحتهم كانت في جانب غرمائي أجلّ وأعلى... نفاق وتمومس بالمجّان.

وهكذا ترى يا صديقي أنني أعيش فترة مخادعة ودجل كبيرين لا بد أن أخرج منها ظافرا، بأسلحة جديدة وأنياب حادّة، لأعلّم من يريد أن ينهشني كيف يكون الافتراس الحقيقي. »

رفع بصره عن الرسالة بدون تعليق، فهم ابن عمه أنه ظفر بالردود المناسبة على أسئلته، فتناول الرسالة مبتسما وقال:

ـــ أرأيت ما تفعل الدنيا بأهلها ؟

ـــ تفعل الأفاعيل يا ابن عمي... أعرف ذلك.

ـــ علمت أنه في تلك الأيام التي قضاها في منطقته قد غرق في مشاكل تافهة بلا حدّ. ولا أعلم من هي الجهة التي كانت لها مصلحة في تثبيته على أرض الموقع، فأطمعته في الربح السهل اليسير، من ذلك أنه عرضت عليه رخصة حانة معمّر فرنسي ارتحل تاركا المحل كما هو، فاستنكف من الأمر واستعلى عن تصوّر حاله يطوف بين الكراسي مبتسما للحرفاء السكارى. ومرة أخرى عُرضت عليه رخصة نقل المسافرين، فلم يقبلها وتنازل عنها لبعض أصدقائه، وبقي مع ذلك حائرا لا يقرّ له قرار. فهو من جهة يودّ البقاء في بلدته ليصلح أحوالها، ويساعد أسرته التي لم تعرف أياما سعيدة، ومن جهة أخرى